محمد عبد الحليم عبد الله

تمهيد

ولد محمد عبد الحليم عبد الله فى ٢٠ مارس ١٩١٣ بقرية كفر بولين مركز كوم حمادة بمحافظة البحيرة ، وحصل على دبلوم دار العلوم ١٩٣٧ • وعمل محررا بمجمع اللغة العربية بالجيزة • وتوفى فى ٣٠ يونيو عام ١٩٧٠ • وكان لنشأته الريفية أثرها على ما أنشأ من أدب • وبخاصة الرواية حيث أنتج فيها عددا غير قليل ، وهو جدير بدراسة تتناول الرواية عنده ، والظروف التى ساعدته على انتاج أدب له لون خاص ، وان غلب على معظمة الاتجاه الرومانسى • ومن المعروف أن الرواية الرومانسية بدأت برواية زينب للدكتور محمد حسين هيكل • واستمر الاتجاه الرومنسى بعد ذلك حتى مشارف الأربعينيات ، بل وحتى مطالع الخمسينيات كذلك • ولكن هذا لا يعنى أن الأدب الروائى ظل كله رومنسيا حتى ذلك التاريخ • فقد بدأت تظهر اتجاهات واقعية مشوبة بالرومانسية أو العاطفية المفرطة • ويصور تلك الواقعية المشوبة بالرومانسية نجيب محفوظ فى مجموعته القصصية « همس الجنون » ١٩٣٨ ، وفى رواياته التاريخية الثلاث ، « عبث الأقدار » ١٩٣٩ ، « ورادوبيس » ١٩٤٣ ، « وكفاح طيبة » ١٩٤٥ • كما تصور ذلك الاتجاه نفسه روايتا عادل كامل مليم الأكبر ١٩٤٤ ، وملك من شعاع ١٩٤٥، ومن المعروف أن الفترة الأخيره من الثلاثينيات كانت مسرحا لأفكار اشتراكية يمثلها سلامه موسى ، وأفكار أخرى عن الفرعونية ، وغيرها ، كما كانت هناك أفكار سياسية تتعلق بالاستقلال ، ودور الملكية المصرية فى ذلك ، كما شهدت مصر ضائقة مالية شديدة فى أثناء الحرب العالمية الثانية التى بدأت ١٩٣٦ ويبدو وعى محمد عبد الحليم عبد الله بما يجرى حوله غائبا فى رواياته بوجه عام • فالتطور أو التغير الاجتماعيان فى مصر عندئذ لايلعبان دورا واضحا فى أدبه • فقد كانت مصر تعانى فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، وبعد أن خمدت نيرانها ، من أزمات اقتصادية طاحنة لم يلتفت اليها فى حين التفت اليها كتاب آخرون • كما تكون العلاقات بين الأشخاص فى تلك الروايات غير مألوفة ، والدوافع البشرية مغلفة بغلاف من العواطف

الحادة غير الناضجة ، تحول بينها وبين السلوك المقنع • ويكفى أن نقارن بين رواية نجيب محفوظ « القاهرة الجديدة ١٩٤٥ ، وهى أول رواية واقعية له ، وبين أول رواية أصدرها محمد عبد الحليم عبد الله وهى رواية لقيطة ١٩٤٥ لندرك بوضوح غياب الوعى بما يجرى فى المجتمع فى رواية لقيطة ، فى حين يتضح هذا الوعى عند نجيب محفوظ الذى يكشف عن فهم دقيق لما يجرى فى مجتمعه وطبيعة العلاقة بين أفراده ، ويركز على ما يحيط بالمثقفين من ظروف فاسدة ، وما يتوزعهم من اتجاهات سياسية أو دينية ممتزجة بالسياسة • ولا يرجع غياب الوعى لدى عبد الحليم عبد الله الى صغر سنه فقد ولد فى سنة ١٩١٣ ، وهذا يعنى أنه كتب روايته المذكورة وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره •

وقد كان لغياب وعيه بما يجرى فى المجتمع ، ولرومانسيته أثرهما فى احداث وفاق بينه وبين مجتمعه ، ولذا نراه فى رواياته راضيا عن قيم ذلك المجتمع مهما كانت متخلفة ، معتزا بتلك القيم ، محاولا أن يصور بعض المآسى العاطفية منبها اليها ، تنبيها عاطفيا تلعب اللغة فيه الدور الأول • وقد سيطرت تلك القيم على البناء الروائى كله • ولا نغالى اذا قلنا : ان قبول الأوضاع الاجتماعية أو الوفاق مع المجتمع ، وسيطرة القيم الأخلاقية المحافظة أو السائدة أمران يكشفان عن كثير من القيم الفنية لأعماله الروائية جميعا •

وقد ظل المؤلف الريفى النشأة لا يطمئن الى المدينة ، ولا يجد هدوء النفس الا فى الريف ، وينعكس هذا بدوره على شخصياته أما أسلوبه اللغوى ، فهو أسلوب أنيق ، لا يخلو من البيانية والصنعة • مما يوحى بأن مفهومة للأدب ، يرتكز أولا على أسلوبه اللغوى • حقا يتحدث عن الفن والموسيقى وما يحدثانه من أثر فى النفس ، ويتعرض للتحليل النفسى ، كما يتحدث عن العقدة والحل فى العمل القصصى • وباختصار له تصوره الخاص للفن ، وان كان يجريه على لسان بطل رواية بعد الغروب : الذى يقول : « وماذا تقولين فى الموسيقى الذى تعزفين ألحانه على معزفك ، هل وضع لحنه هذا اعتباطا وألف بين نغماته جزافا وكما يتفق ، أم هو يترجم عن معنى يخامر نفسه ويريد أن تنتج أثرها بنفسها وحدها ، ولاتحتاج الى معونة خارجة عنها ، وأستطيع أن أذهب الى أبعد من هذا فأقول : ان ما يرسمه الأديب بقلمه

والموسيقى بلحنه والرسام بريشته ، والنحات بمنحته ، ليؤثر فى نفسى بأشد مما تؤثر الحقيقة ، لأن هؤلاء هم رسل العواطف بين المعانى والقلوب ، يتلمسون بأدواتهم تلك مواطن الاحساس فى النفس ثم يعرضون عليها الصورة فتتمثلها فى لمحة قصيرة ٠٠ » (١) ولكن ذلك التصور عام غامض لا يزيد على فكرة نظرية لاقيمة لها بغير التطبيق الصحيح ٠ هذه هى فلسفة الابداع عند الكاتب ، وهى فلسفة تتحقق من خلال أحداث وشخصيات وحبكة ، ومكان وزمان وغيرها من عناصر العمل الفنى ٠ وتحكم تلك العناصر ، لأن الكاتب ليس مدركا ادراكا واعيا لطبيعة البناء القصصى ٠ فالحرص على منطقية البناء وتماسكه لا تتحقق فى أعماله الروائية بما فيه الكفاية ٠

على أننا يجب ألا نظلم الكاتب ، فننسى ظروفه الشخصية والثقافية الخاصة ، أو ننسى تصوره لمفهوم الفن ، ويجب ألا ننسى تأثير المنفلوطى عليه ، فهو تلميذه (٢) ٠ ونحن لا نقلل من شأن المنفلوطى ، وأثره على كثير من الكتاب بل والشعراء ٠ فالأستاذ نجيب محفوظ يعلن صراحة أنه ما كان ليكتب فى القصة أو الرواية لو لم يقرأ المنفلوطى ٠

تكشف رواية « لقيطة » ١٩٤٥ عن طبيعة الرؤية الفنية لدى المؤلف، ولأهميتها فى هذا الشأن ، فسوف نتناولها بالدراسة والتحليل المستفيض نسبيا ٠ وهى أول أعماله الروائية ، وتعرض « للقيطة » منذ الطفولة حتى الشباب ، فى رحلة معاناة تنتهى بموتها ٠

ويصور القسم الأول منها « اللقيطة » وهى فى الملجأ ، وليس به أحداث بالمعنى المفهوم ، ويتألف من لقطات ومواقف مختارة فى مراحل زمنية تمثل تطورا فى حياة الفتاة ٠ ويقدمها المؤلف ، فيرسم شخصيتها والبيئة المحيطة بها ، وما كان لها من أثر فى نفسها ٠

---

(١) بعد الغروب ١٠٠

(٢) الدكتور شكرى محمد عياد ، تجارب فى الأدب والنقد ص ١٧٤ ، ١٧٥ « ٠٠٠ فبين الرجلين اتفاق كبير فى الطبيعة والثقافة والأسلوب : كلاهما ريفى لم تستطع المدينة أن تنفذ الى عظامة ، وكلاهما يتناول أشكال الأدب الحديث بنفس القلم المعربى الزخرفى القديم ٠٠٠ وكلاهما شاعر نثر شعره : الأول فى مقالاته والثانى فى رواياته » ٠

ويبدأ حدث الرواية فعلا ، بخروج الفتاة من الملجأ بعد أن قضت به ثلاثة عشر عاما ، قادرة على العمل الذى تعيش منه • وتتعرض فى عملها هذا الى متاعب تخلقها لها زميلاتها فى العمل وهو التمريض بأحد المستشفيات الخاصة • ومن ثم تطرد من المستشفى ، ولكنها تجد من يمد لها يده ، فتعثر على عمل جديد فى مستشفى حكومى فى الاسكندرية ، وهناك تلتقى بطبيب شاب يحبها ، ولكن الأحداث تتعقد مرة أخرى ، لأن أسرة الطبيب تكتشف أن الفتاة لقيطة ، وتحل تلك العقدة بموتها ، وكأنه المخرج الوحيد ، ولأنه أيضا يعمق من مأساتها •

وتلعب المصادفة دورا هاما فى تقرير مصائر الشخصيات ، فالمرضعة زينب التى كانت ترضع « ليلى » تنجب بنتا تدعى « كوكب » تأتى الى الى مدينة الجيزة لبيع اللبن لعملائها ، فتتعرف على « ليلى » ثم تتزوج فتنقطع العلاقة بينهما ، ولكنها تظهر فجأة ، وبطريق الصدفة ، وتقص قصة « ليلى » لأقارب الطبيب الذى أحبها وأوشك على الزواج منها • فتقضى على ذلك الزواج الوشيك • وليست هذه هى المصادفة الوحيدة فى الرواية ، بل هناك مصادفات أخرى ، فامرأة الدكتور « ك » تدخل عليه المستشفى فجأة ، فتجد اللقيطة ليلى عنده ، فى نفس اللحظة التى قرر فيها أن يطردها • ويلتقى الدكتور جمال حبيب ليلى بها مصادفة مرتين : مرة فى الفندق الذى نزلت به ن الاسكندرية لأول مرة ، وأخرى على شاطىء البحر • ولاتنتهى المصادفات عند هذا الحد ، اذ تلتقى ليلى بأمها صدفة فى المستشفى الذى تعمل به فى مدينة الاسكندرية ويتم التعارف بينهما •

وتمتزج قصة كفاح البطلة بحبها للدكتور جمال ، الذى يكون شابا مثاليا ، ولكنه حب لا يمضى الى غايته الطبيعية ، لأن الموت لايلبث أن يعاجل الفتاة •

وتكون البطلة حسناء مثالية ، تتمتع بالخلق الفاضل والرقة،وكأن المؤلف يقيم مفارقة بين ذلك الجمال الآسر ، وبين حظ صاحبته من الحياة وهى مفارقة يدعمها ما تتحلى به الفتاة من جمال وخلق معا • ويضيف المؤلف الى ذلك شعورها بالاغتراب والوحدة • وميلها الى اعتزال الناس • وتظل تتمتع بتلك الصفات ـ برغم المصاعب ، فلا تهتز قيمها ، ولا يتغير سلوكها •

ولم يستطع المؤلف رسم شخصياته بنجاح ، سواء الرئيسية أو الثانوية منها • فالمرضعات فى الملجأ أنمــاط ثابتة ، لا يهتم المؤلف برسم صورة جسدية لهن فيما عدا زينب مرضعة ليلى بطلة الرواية ، التى يصورها على خلق طيب . وتتمتع بكثير من رقة المشاعر يدفعها الى رعاية الطفلة • وعلى العموم فالشخصيات الثانوية لا تخطى بقدر كبير من اهتمامه وتكاد وظيفتها أن تكون تطوير الأحداث أو دفعها الى الأمام ، أو الكشف عن دوافع بعض الشخصيات • ولذا نجد الدكتور •• ك •• الجراحى نمطا ، أو بعبارة أخرى شخصية مسطحة ومع اهتمام المؤلف بتقديم صورة نفسية وجسدية له • تجمع بين المتناقضات فهو : « •• رجل قارب الخمسين من عمره ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، غير منظم الجسم ، ولا واضح القسمات ، تخالط سمرته صفره ، ويدل منظر ملامحه على الجمود ، والتردد ، ولكنه طيب القلب محب للخير واثق بالله • الا أنه يعطى من قلبه أكثر مما يعطى من ماله ، فتودده وحنانه أيسر عنده من القرش وأرخص من الجنيه ، وهو بعد كثير الاستشارة حريص على رضا زوجته ملق اليها بزمام نفسه وقياد أمره •• » (٣) • وهى صفات تؤهله لأداء دورة فى الرواية حيث لا يتحرى الصدق فى شأن ما نسب الى « ليلى » من أقوال ويطردها من عملها بعد أن طلبت اليه زوجته ذلك •

وتعكس الصورة الجسدية طبيعــة الشــخصية فالسيد الأمين الذى رعا ليلى بطلة الرواية يمثل صورة مناقضة للطبيب ، وتتسق فى جمالها مع ما يتمتع به من خلق • « •• تألفه العين للنظرة الأولى ، وتطمئن اليه النفس ، للوهلة الأولى ، كما تطمئن الى اليقين ، وتركن الى السلام •

لحية بيضاء خفيفة مستديرة كأنها طفاوة الشمس أو هالة القمر • وعينان استعاذتا بالمنظار من طول ما سهر صاحبهما عابدا أو قارئا أو كاتبا ، وشفتان لا تفتران عن التسبيح ، والتحميد فى حركة خفيفة وهمس ضئيل ، لأنه لا يسمع الا الله » (٤) •

وتلعب السيدة العجوز التى تسكن عندها ليلى دورها فى تحريك الأحداث

---

(٣) لقيطة ص ٤٧ ، ٤٨ •

(٤) المرجع نفسه ص ٧٨ •

تؤهلها لذلك ثرثرتها ، فهى تنبه الفتاة الى أن أحد الشبان يحبها ، وان كان ذلك يتم بصورة غير مباشرة • كما تعرفها « بكوكب » ابنة زينب المرضعة بالملجأ الذى نشأت فيه الفتاة •

وقد أفتقدت شخصية «ليلى» بطلة الرواية للواقعية والصدق، اذ أنها بعد أن قضت ثلاثة عشر عاما بين جدران الملجأ ، تتنازل عن سوار ذهبى أهداه اليها ناظر الملجأ ، وكأنها لم تتعلم مما يحيط بها من ظروف قاسية شيئا •

كما تتكلم هى وغيرها من الشخصيات وبخاصة المرضعات فى الملجأ بلغة لا تتناسب وثقافتها المحدودة • تقول البطلة عن نفسها : « •• أنا بستان من غير حارس ، وشهد لا يحوطه نحل ! •• أنا وردة ليس يحميها شوك •• أنا شاة غفل عنها الراعى فتخلفت عن القطيع والمرج تعوى به الذئاب ، والذئب يفتك جائعا وغير جائع ؟ » (٥) •

والكاتب يتابع بطلته فى مراحل هامة من حياتها ، ويعقد الأحداث أكثر من مرة ، مرة عند طردها من الملجأ ، ومرة أخرى بعد أن كشفت حقيقتها لأسرة الدكتور جمال الذى قرر أن يقترن بها ، وتحل العقدة الأخيرة بمرتها •

وتجرى الحكمة على لسان الراوى والشخصيات ، وتصاغ فى أسلوب بيانى ، حريص على الأناقة ، وتقطع تلك الحكم سير الأحداث ، وتصبح مفروضة عليها فرضا •

يتبع محمد عبد الحليم عبد الله الأسلوب الذى ألف به روايته «لقيطة»، فى عدد آخر من رواياته فيقدم لقرائه ست روايات تتشابه شكلا ومضمونا ، وتكشف عن أسلوبه فى تأليف الرواية•وتلك الروايات هى «بعد الغروب» ١٩٤٩ «وشجرة اللبلاب» ١٩٤٩،و« الوشاح الأبيض » ١٩٥١ ، و« شمس الخريف » ١٩٥٣ ، وغصن الزيتون ١٩٥٥ و« من أجل ولدى » ١٩٥٧ • وتصور تلك الروايات قصة كفاح أبطالها ، ويكون لعاطفة الحب دورا هاما فى حياتهم • والبطل فى تلك الروايات يتسم ببعض الغرابة وبضعف الارادة ، الذى يلجئه الى الاستعانة بصديق يكون أكثر منه ايجابية ـ فى الغالب ـ وخبرة

---

(٥) المرجع نفسه ص ٩٤ وانظر تكملة قولها من الصفحة ذاتها •

بشئون الحياة ، وهو ما يفتقر اليه ذلك البطل ، ولذا يستعين بخبرته كلما اعترضت الصعاب حياته ·

ويكون ذلك البطل على ضعفة ، وقلة خبرته بشئون الحياة هو الذى يروى وقائع الرواية ويقدم أشخاصها غالبا · وينثر فيها ما يشاء من حكم ، بل انه قد يسبق الأحداث فيقلل من استمتاع القارىء بها · ويعاقب المؤلف الأشرار عن شخصياته على ما اقترفوه من أخطاء أو خطايا · وهو يفعل ذلك بدافع أخلاقى يظهر فى أعماله القصصية والروائية جميعا (١) ·

ويتضح التشابه فى بناء هذه الروايات من دراسة جوانبها الفنيـة الأخرى · يقول بطل رواية بعد الغروب (١٩٤٩) : « انها قصة الفقير الموهوب يشق طريقة بالفأس بين الصخور ·· » ويقول بطل شجرة اللبلاب، وهو يحدثنا عما لقيه من صعاب : « وهكذا مكنت لى الأقدار التى قلبت بى الزورق ، أن أركبه وهو مقلوب ، فيسرت لى سبيل النجاة فلم أكن من الها لكين · » وتوضح هاتان العبارتان مضمون الروايتين ، وهو كفاح بطليهما فى الحياة بالعمل ، أو فى تحقيق الذات · كالحب مثلا ·

يتخرج بطل رواية « بعد الغروب » من كلية الزراعة ، فيواجه بضياع معظم ثروة أبيه تاجر القطن ، فيضطر للعمل لكى يعول أسرته ، ولما لم يجد عملا فى وزارة الزراعة ، عمل فى معمل للألبان بأجر زهيد ، ثم تركه وعمل ناظرا للزراعة عند فريد بك أحد ملاك الأراضى الكبار ·

وفى أثناء عمله يتعرف على أميرة ابنه فريد بك ويحبها ولكن أباها يزوجها من ابن أخيه سامى ، لكى لا تئول ثروته الى الغرباء ، ولكى يعوض أبناء أخيه عن فقرهم بعد وفاة أبيهم ·

ويخرج عبد العزيز من عزبة البك مطرودا ، بعد أن توفى صاحبها · ولكنه بجهدة وكفاحة يحقق لنفسه حياة مستقرة ، فى حقل الأدب ، وفى مجال الزراعة وتكوين الثروة · فوزارة الزراعة تمنحة اقطاعية ، وتؤهله موهبته

---

(١) انظر د · شكرى محمد عياد ، الأدب فى عالم متغير ، ص ٣٠ ، ٣١ · الذى يتحدث عن الهدف التعليمى الذى ارتبط بفن السرحية والقصة ، ويعنى به دلالة الأدب على معزى خلقى أو اجتماعي أو وطني واضح ·

الأدبية لاحتراف الكتابة والمشاركة فى تحرير مجلة أدبية تحقق له الشهرة والدخل المعقول ٠

ويلتقى بأميرة ابنة البك وحبيبته السابقة وقد صار شيخا (أى بعد الغروب) ، كما أصبحت هى تخطو حثيثا نحو الشيخوخة ، فتعتذر له عن زواجها بغيره ، وتقنعه بالأسباب التى دفعتها الى الاقدام على ذلك الزواج ٠

الرواية تصور ــ بوضوح ــ كفاح بطلها ليعيش وليعول أسرته ، وبرغم المشقة والاصعاب يحقق كل مطامحه ، دون أن تهتز قيمة ، أو يستسلم للعجز ٠ ولكن ذلك الموضوع كثير الحواشى ٠

وتفتقر شخصية البطل الى الايجابية ، مما يجعل المؤلف يمده بصديق يدعى صالح ، يرجع اليه فى الأمور ذات الأهمية والتى يصعب عليه وحده مواجهتها ٠ فهو يستشيره فيما ينبغى أن يفعل وقد أحب أميرة ابنة صاحب العزبة ، فيقترح عليه أن يثير غيرتها بتودده الى فتاة أخرى ، فلا يتردد لحظة فى العمل بمقتضى تلك النصيحة ، عندما ساقت الأقدار آمال ابنة خالة أميرة فأخذ يتودد اليها ، وفعلا تثور مشاعر الغيرة فى نفس أميرة ، فتفضى اليه بحبها له ، بل ويتمكن من تقبيل عنقها ٠

ويكون صالح أكثر ايجابية وتجربة من البطل ، وذلك ــ برغم كونه أقل منه ثقافة ٠ وتثير سذاجة البطل دهشة القارىء فلا يمكن أن يكون مثله خريجا من كلية الزراعة ، عاش فى المدينة فترة طويلة ، وظل يمثل تلك السذاجة ، فالمؤلف حريص على أن يجعله كالعذراء ، خجلا وترددا ، أو بعبارة أخرى سلبيا لايريد أن يفعل شيئا ٠

وفى الرواية شخصيات زائدة مثل حامد وزينب ، ولعلهما سقطا اليه من رواية « زينب » لهيكل ٠ وزينب فى رواية محمد عبد الحليم عبد الله تحب البطل ، مع علمها بأنه يحب أميرة ، وتفطن الى ذلك من هذيانه وهو مريض بالحمى ، ومن ثم تعمل على توثيق عرى المحبة بينه وبين أميرة وتظل علاقتها به بريئة كل البراءة ٠ ولا يمكن أن تكون الغرائز البشرية بمثل ذلك الضبط والاحكام والمثالية،مما يجعل القارىء لا يقتنع بسلوك الشخصيات مع الواقع والمنطق معا لا فى واقع الحياة فحسب ، ولكن فى واقع الرواية كذلك

وبخاصة وأن تلك المثالية تفرض على الشخصية أن تسلك سلوكا يتجافى فأميرة حبيبة البطل تقرر أن تمنحه نفسها طائعة مختارة ولكنه يفر من بين ذراعيها ، محذرا اياها من مغبة ماهى مقدمة عليه : « .. القت ذراعها على كتفى ووجهها لايزال مسامتا وجهى وأنفاسها الحرى تلفح خدى ، وشفتاها الذاويتان ترددان : أحق ما تقول ؟ !

وأحسست أننا فى موقف خارق ... فى لمحة من العمر تعبر الأيام مرة واحدة ، كما يقولون عن الكوكب الدرى أنه يعبر السماء مرة لاغير ... وأدارت رأسى ملامحها المحزونة ، وغمرتنى موجة مختلطة ، من حب وشفقة ورثاء وخوف من المستقبل ، فاذا بها بين أحضانى حتى نسينا باب الحجرة المفتوح ، وان كنا غير جالسين فى تجاهه . ثم أفقت من هذه النوبة التى اعترتنى ، نظرت اليها فاذا هى لا تزال تحت سلطان الغمرة : عيناها نصف مغمضتين ، وذوائبها السود بعضها متراجع وبعضها حائر على الوجه ، والصدر الذى شب بياضه سواد الثوب يعلو ويهبط مساوقا حركة الأنفاس»(٢) .

ويقضى البطل على ذلك الموقف العاطفى العنيف ، بذهنه اليقظ دائما بقوله لحبيبته : « .. لاتنسى ما بيننا من حواجز !! فانتفضت كأننى صببت على رأسها ماء . » ويبدو سلوك الشخصيتين هنا محكوما بمفهوم أخلاقى مثالى لدى المؤلف ، لايريدهما أن تخرجا عليه . فالبطلة تسلم نفسها لمن تحب ، ولكنها - فى الوقت ذاته - لا تجد لديها القدرة أو الشجاعة لأن تخبر أباها بحبه ، ثم هى تبذل نفسها لحبيبها ولكنه لا يقدم على معاشرتها ، دون أن يكون هناك مانع مقنع يحول بينه وبين ذلك . ويكثر بكاء البطل ، فهو يريق دموعه بلا حساب ، فهو مثلا يقول عن وداعه لأمة : « وما ودعتها قط وأنا مسافر الا تركت على ظهر يمناها دمعة وقبلة » (٣) . ويبكى عندما يودع مسكن صديقه صالح . يقول : « .. وكفكفت دمعة بعد أن قرأت ما كتبت ، فقد تخيلت ذلك الشخص الوفى يطويه ظلام البلاء » (٤) . وعندما يترك له صديقه صالح خطابا وخمسة جنيهات ليقضى بها حوائجه قبل السفر الى عزبة البك التى يعمل بها ، يبكى كذلك : « .. فطفرت من عينى

---

(٢) بعث الغروب ص ٢٠٠١٠

(٣) المرجع نفسه ص ٣.

(٤) المرجع نفسه ص ٦٧

دمعة لوقع هذا الوفاء على قلبى » (٥) • والأغرب من هذا كله أن تفيض عيناه بالدموع وهو يقرأ القصةالتى كتبها أبو أميره،حبيبته،أثناء املائهااياه ليكتبها• كما يبكى عندما يتذكر موقف والد أميرة من زواجهما ، وعندما يدرك أنه فقير • وهذه ليست الا أمثلة على الاستجابة الفجة للواقع من جانب البطل •

قلنا ان البطل متردد ، كذلك تكون البطلة • ولكن تردده ونكوصه عن الاعتماد على نفسه يعد أمرا واضحا فى الرواية ، فهو لا يقدم على أمر له خطورة بالنسبة له الا بعد أن يستشير صديقة « صالحا » ، فهو مستشار هواه أو « القاموس » ــ كما يسميه ــ الذى يرجع اليه • والحق أن الوصايا التى أوصى البطل بها كانت مفيدة ، ومن الغريب أن « صالحا » وهو يراقب أميرة بتكليف من البطل ، يتابعها الى احدى دور السنيما ، ويدخل بحيث يراها ، ويرى تأثير مشهد من المشاهد المهمة فى الفيلم على نفسها ، اذ تبكى لفرط تأثرها بما تراه • والمشهد هو موقف بين رجل وامرأة تعلن فيه المرأة أنها لا تحب الرجل بل تصرح بكراهيتها له ، فى حين يقف الرجل واثقا بنفسه كل الثقة ، فتسارع بالقاء نفسها بين أحضانة ، وتفعل أميره مع عبد العزيز بطل القصة ما فعلته بطلة الفيلم بلا زيادة ولا نقصان • وكأن الانسان لا يمكن أن يتصرف بوحى عواطفه وغرائزه وعقله ، أو يستجيب استجابة طبيعية لما يحدث له أو لمن حوله •

ونحن نرى كل شىء كما يراه بطل الرواية وراويها ، ويقدم لنا أميرة على دفعات ، ويصورها فى صورة جميلة أخاذه ، فهى ذات شخصيةقوية ، تدير العزبة ، وتأخذ الحياة مأخذ الجد • ولا تضعف أمام عواطفها ضعفا يذرى بها باستثناء الموقف الذى اسلمت له فيه نفسها • ومع ذلك فانها تستسلم لرغبات أبيها ، فتتزوج من «سامى» ابن عمها ، الذى يبدو من صورته أنه مخنث ، ومتسلق ولاشرف عنده (٦) وهو ما يجعل الدكتور عبد القادر القط يصفها بأنها سلبية (٧) • ويجرر المؤلف على المرأة ، ويعتبر الرجل أكثر تقديرا للأمور منها : فيقول البطل لزينب الريفية الفقيرة التى كانت تخدمه ، وهو يحثها على الزواج من ريفى آخر يدعى حامد كان يحبها ،

---

(٥) المرجع نفسه ص ٧٠

(٦) المرجع نفسه ص ١٨٢ ــ ١٨٤

(٧) الدكتور عبد القادر القط ، فى الأدب المصرى المعاصر

« .. يسعدنى ويرضينى أن أراكما زوجين ، انه رجل ، وحكمى عليه وأنا رجل مثله ، أصدق من حكمك عليه ، وأنت فتاة لاتحسنين تقدير المصير » (٨) .

وتقوم الحبكة على عرض علاقة المهندس بأميرة وأبيها ، ثم حبه لها . ونتابع البطل وقد تخرج من كلية الزراعة ليجد أباه قد فقد ثروته وليجد نفسه وقد أصبح عائلا للأسرة ، ويبحث عن عمل ويتنقل من معمل الألبان الى عزبة أحد البكوات . ويحب ابنته ولكنه يضطر الى مغادرة العزبة . ويحذف المؤلف أحداثا كثيرة ، ثم يخبرنا أنه حصل على « مزرعة » أو اقطاعية من وزارة الزراعة ، وأنه يحيا حياة طيبة مستقره ، وأصاب الشهرة كصحفى وكاتب . ويلتقى بأميرة التى تأتى اليه لتقص عليه ما غاب عنه من قصة زواجها لسامى .

ويتتبع المؤلف مصائر بعض الشخصيات الثانوية التى رأى أن القارىء قد يكون فى حاجة الى معرفة مصائرها . فصالح صديق البطل ينصرف الى التصوف ، ويموت فى ريعان شبابه ، ويتزوج حامد من زينب ، وينتقلان الى عزبة البطل يعملان فيها ، وقد رزقا بالكثير من الأبناء .

ويميل المؤلف فى تتبعه لخط الأحداث ، الى سرد أحداث فرعية ، كقصة حامد وزينب ، وما يربطهما من حب ، وبخاصة ما كان يربطها بالبطل من حب ، ثم زواجها بحامد . ومثل قصة حياة صالح صديق البطل ومرجعه فى شئونه الهامة ، ولكن هذا كله لا يعنى أن تلك الأحداث لاتربطها صلة ما بالخط الرئيس للأحداث ولكنه يؤخذ على المؤلف الاطالة فيها والسذاجة فى عرضها . اذ كان القليل منها يكفى لتطوير الأحداث والكشف عن طبيعة الشخصيات الرئيسية .

***

يتفق بناء « شجرة اللبلاب » ١٩٤٩ وبناء الرواية السابقة ، فهى مثلها يقصها بطلها مستخدما ضمير المتكلم . ويظهر التشابه بينهما فى رسم الشخصيات ، فهى تقدم من الخارج وبايجاز شديد فى معظم الأحيان ، وقد يكون عجز المؤلف عن استغلال امكانيات أسلوب القص بضمير المتكلم مسئولا عن ذلك . فهذا الأسلوب ان لم يعتمد على شخصية حية تتمتع بثراء عقلى ، ولم يتوفر

---

(٨) بعد الغروب ص ١٧٧

عليها كاتب حاذق يعتمد على التركيز والقدرة على الابداع والتصوير ، فانه يصبح غلا فى عنقه وعنق راويه معا وقد كان الراوى شبيها بالراوى فى الرواية السابقة ، له صديق يعتمد عليه مثله ، ولكن هذا الصديق لا يلعب هنا دورا يماثل فى خطورته وأهميته دور الصديق فى حياة البطل فى الرواية السابقة ٠

ويحتل التصور المثالى للعلاقة بين الرجل والمرأة مكانا بارزا من رؤية الكاتب الفنية ٠ فالبطل والبطلة مثاليان يحرص المؤلف على أن تقف العلاقة بينهما عند حد لايسىء الى الفضيلة ، فالفتاة تحب فتاها ، ولكنها لا تمنحه أكثر من القبلات ، أو على الأقل لا تتخلى عن عذريتها ٠ يقول البطل مصورا استسلام حبيبته له ، وارتماءها فى أحضانه ، ورفضه للعدوان عليها ، ورعا وتقوى : « ٠٠ ورأيت بعد برهة مفاتيح الكنوز فى يمينى لم يستعص على باب ، لا ، ولم يزجرنى حارس ، وكانت عيناها تمنحانى ، وتدفعانى الى الأمام وتستقيانى خمرا استعين بها على المخاوف حتى لا أنكص ٠٠ ولكن ٠٠ آه ٠ لا تدع خيالك يجمح بك فقد كنت نصف كريم ٠٠ » ولاينسى الكاتب أن يشير بوضوح الى أن الفتاة ظلت ٠ تحتفظ بعذريتها ، برغم هذا اللقاء الوجدانى الحار ، مدفوعا بمفهومة الأخلاقى المثالى لما ينبغى أن تكون عليه العلاقة بين المحبين (٩) ٠

وموقف البطل من حبيبته هنا يشبه موقف بطل بعد الغروب الذى عرضنا له فيما مضى (١٠) ، والبطلة تفسر لحبيبها هذا الموقف بعد أن تلتقى به وقد أصبحا فى مرحلة الشيخوخة بأنها قد فعلت ذلك من قبيل العطف عليه (١١) وقد كان بطل « شجرة اللبلاب » يفتقد الثقة فى المرأة ، ويشك فى عفافها ، وهو شك غرسته فى نفسه خيانة زوجة أبيه لأبيه ٠ وقد كانت فى ريعان الشباب ، فى حين كان أبوه قد جاوز الخمسين من عمره ، فانصرفت عنه الى ابن عمها الشاب ٠ وقد قوى هذا الشك فى نفسه مالاحظه من خيانة عم غانم لامرأته مع امرأة أخرى متزوجة ٠

---

(٩) شجرة اللبلاب ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧

(١٠) بعد الغروب ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١

(١١) بعد الغروب ص ٢١٩

ويدفعه هذا الشك المرضى الى الانصراف عن حبيبته ، والاساءة اليها بلا مبرر ، مما يدفعها الى الانتحار • ولكنه انتحار غير مبرر ، فالفتاة مثقفة ، وتقدم على علاقتها بالشاب مدركة لكل ما يترتب على هذه العلاقة ، وغير آسفة على ما قد يقع بينهما ، تقول الفتاة فى خطاب الى حبيبها : « وقد وقع بينى وبينك أشياء لعلك تنظر اليها الآن على أنها أخطاء ••• تأخذنى بها وتصغرنى فى عينيك •• آه •• ولكنى مصرة عليها ومتعصبة لها ، لأننى لم أبذلها لك ارتجالا كما تغتنم لذة سهرة عرضت لك فى الطريق • كلا • اننى أربأ بأخطائى أن تكون من هذا النوع » (١٢) •

ويفرط المؤلف فى الرومانسية ، وهو يتحدث عما يشعر به البطل لفراق القرية ، وبالذات حزنة لفراق مصباح الغاز : « •• وأما الشىء الذى تمهلت طويلا فى وداعه فهو أنيسى بالليل ، وسميرى فى الحجرة ، هذا المصباح الصغير الذى بت أرقبه معظم الليل بعين مفتوحة ، وبات يرمقنى طول الليل بعينه الرمداء » (١٣) • كما يأسى لفراق المنبه عند مغادرته منزل عم غانم الى سكن خاص به : يقول : « •• على أن موقفى يوم ودعت هذه الأسرة لم يكن خاليا تماما من شىء من الأسف ، فلقد خفق قلبى وأنا أنظر الى المنبه » ذاكرا أننى لن استمع لدقاته بعد اليوم ، وأن حركات آلته الرتيبه لن تنبعث الى أذنى فى الظلام حاملة الى جسمى خدرا يجلب النوم ؟ ! •

واذكر أننى حملت نظرتى اليه معانى من الأسف والألفة التى تحملها نظرتى الى أم فوزية ••• آه ••• لكثيرا ما تكون صداقات الجماد أبقى وأقوى من صداقات بعض الناس » (١٤) •

ويقدم المؤلف أبا بطله دفعة واحدة ، مصورا أسلوبه فى التفكير مشيرا الى عناده ، وتعصبه لرأيه ، اعتقادا منه بأنه يتمتع بذكاء لا يشركه فيه غيره من الناس ، ويتحدث بذكائه هذا كثيرا ، ويرد اليه نجاحه ان نجح ، ويرد الى سوء الحظ اخفاقه ان منى بالاخفاق •

وهو لا يحسن ادارة مدرسته الأوليه التى يعمل ناظرا لها ، لأن معاملته

---

(١٢) شجرة اللبلاب ص ١٥٣
(١٣) المصدر نفسه ص ٤٠
(١٤) المصدر نفسه ص ٧٣

لمرؤوسيه كانت قائمة على الهوى٠كما يصور ـ فى أثناء ذلك ـ سماته الجسدية، مثل ملامح وجهه ، وشاربه ، ويصف ما حل به من هزال بعد أن تزوج ٠ ووصفه لعم غانم صورة نمطية لريفى عاش فى المدينة وهى صورة لا تخلو من غرابة : « ٠٠ رجل جاوز الأربعين ، قريب من القصر ، قريب من البدانة، لا تزال عليه من آثار الريف دلالات واضحة ، هى وشم أخضر على ظاهر كفيه يمثل سنابل القمح ، ووشم آخر على صدغية يمثل عصافير الربيع . ولم تستطع أسباب التمدن التى تعلق بها أن تمحو عنه هذه الآثار على الرغم من السن الذهبية التى تلمع فى جانب فمه والتى عمد الى اظهارها أول الأمر بارخاء أحد شدقيه ، حتى أصبح هذا عادة ملازمة له ، وأصبح عم غانم معوج الفم » (١٥) ٠

ثم يكشف المؤلف عن نفاقه وكذبه وسوء سلوكه ٠ وكلتا الشخصيتين تؤدى دورها الذى أراد لها المؤلف أن تؤديه ، فالأب بصورته تلك يمكن أن يتزوج ، وأن يغرر به ، وأن يهمل ابنه الكبير ، لينصرف الى ابنه الصغير ٠ كما أن عم غانم يعزز عنصر الشك ويقويه فى نفس البطل ٠

وتكون امرأة عم غانم قبيحة ، وليت المؤلف أراد بهذا أن يصور أثر قبحها على سلوك زوجها ، ولكنه بدلا من ذلك ، يصور خيانته لها ٠ مما يجعل الأمر كله لا يعدو أن يكون مسألة ادانة أخلاقية غير مبرره لسلوك الرجل ٠

ويرجع الافتعال فى رسمه للشخصيات ـ بوجه عام ٠ الى اخضاعها لتصور سابق ، يحد من مجال تفكيرها وعواطفها ، وحركتها ٠ أنظر حسنى فى « شجرة اللبلاب » تجد همومه تتركز كلها فى شكله فى المرأة ، ويطفو هذا الشك فوق سطح تفكيره ، ويستبد به ، فان رأى امرأة تصور أن لها عشيقا، فان لم يجد ذلك العشيق بصحبتها ، رد ذلك الى حرص المرأة على التستر لا الى ما تتمتع به من عفاف ٠ ويتجلى ذلك أيضا فى رسم شخصية «زينب»٠ لقد قدر لها الكاتب أن تنتحر ، وجعلها تحب حبا غريبا ، ولم يغفل الاشارة الى غرابتها ٠ والواقع أن معظم شخصياته مصاب بالحساسية والضعف ٠

---

(١٥) المصدر نفسه ص ٥٢ ، ٥٣

وتموت البطلة موتا مفتعلا ، فانتحارها ليس له غرض فنى بقدر ما يهدف الى تأكيد المثل أو القيم التى يدافع المؤلف عنها ٠

وتكون زينب جميلة جدا ، وأكثر ايجابية من حسنى الذى أحبته ، بل أكثر منه ثقافة ، ويجمل المؤلف رسم شخصيتها بأنها خيالية متفائلة ، ولعله يريد القول انها كانت تتأثر بالقصص وكتب الأدب التى كانت تقرؤها فى دار الكتب المصرية ٠

وقد اتخذت الطبيعة شكلين : أحدهما توصف فيه لذاتها ، بهدف بيان جمالها ٠ أما الآخر فيرتبط بمشاعر البطل ويعكس أفراحه وأتراحه ٠ وقد يرتبط بما يقع من أحداث سارة أو محزنة ٠ فبعد وصف موجز كئيب للطبيعة فى فصل الخريف ، يكتشف بطل الرواية أن زوجة أبيه تتخذ من ابن عمها خليلا لها (١٦) ٠ مما يثير أشجانه ٠ ويجعل تلك الحادثة تؤثر على حياته تأثيرا خطيرا ٠ وتموت أمه فى ليلة من ليالى الخريف ، وتكون الطبيعة جميلة ساحرة عندما يلتقى هو وحبيبته زينب لأول مرة (١٧) ٠ بل وتكون الطبيعة مهربة فى حالتى حزنة أو سعادته ٠

والحبكة فى الرواية تتسم بالبساطة ، فهى سلسلة أحداث تقع لشخص واحد أثناء تعامله من أشخاص آخرين ، مثل أبيه وزوجته ، وأخته ، وصديقة ، وحبيبته ٠ وهى أحداث تنشط أحيانا ، ولكنها لا تتعقد بالمفهوم الصحيح للعقدة فى الرواية ، وذلك لأن خيط الأحداث يسير سيرا طبيعيا هادئا ٠ ويبدو أن تتبع حياة البطل فى رحلة كفاحة ، سواء وهو صغير أو وهو صبى يافع وشاب ، وتصوير ذلك بضمير المتكلم قد أتاح للراوى أن يورد كثيرا من الحكم التى تقطع مجرى الأحداث ، وتخاطب القارىء بغية التأثير فيه ٠ أو تقديم بعض المعلومات التى يراها جديرة بأن تساق الى القارىء كأن يقول ـ مثلا ـ متحدثا عن صباه ، وما لقيه فيه من قسوة : « ٠٠ غير أن هموم أيامنا الخوالى كثيرا ما تكون من أسباب اسعادنا فى الحاضر وبخاصة اذا أخذت متاعب الحياة فى الانهيار أمام كفاحنا شيئا فشيئا ، أعنى أن محنتنا فى الحاضر حينذاك تضؤل فى أعيننا اذا قيست بهموم ماضينا ، فنقف لها

---

(١٦) المصدر نفسه ص ٤٠

(١٧) المصدر نفسه ص ٩٧ ، ٩٨ وانظر ص ١٥٤ يتضح ذلك ٠

صامدين ونستشعر تفاؤلا وسلاما • وهذا كان شأنى (١٨) أو قوله الذى قد يكون فيه متأثرا بآراء فرويد : « •• آه •• لسنا يا صديقى الا ثمرة لعدة تجارب ، ونتيجة لعدة مشاهد تختبىء داخلنا ابان سنواتنا الأولى ثم تحركنا من حيث لا نشعر فنندفع بها كما يندفع (البالون) بالغاز ، وانك سترى أثر هذه الحادثة فى نفسى عندما أعرض لأحداث شبابى » (١٩) • والرواية حافلة بمثل تلك المعارف التى يزفها المؤلف الى قارئة بمناسبة أو بغير مناسبة •

وتموت البطلة لأن بطل الرواية حبيبها قد قسا عليها ، بتأثير الشك المرضى الذى غرسته فى نفسه زوجة أبيه الخائنة ، وأكده لديه عم غانم وصديقته التى ضبطه وهو يتنزه واياها على شاطىء النيل • وتكاد قصة راشد صديق البطل تكون مقحمة على أحداث الرواية ، لأنها ـ فى الواقع ـ لا تؤدى بالبطل الا الى عمل أشياء تافهة • كأن يتعلم منه العزف على الناى ، مثلا ، ولكننا نلاحظ أن المؤلف يريد احداث مقابلة بين شخصيهما ، وبيئيهما ، فهما نقيضان من حيث الصورة الجسدية ، وفى موقفهما من المرأة • ففى حين يرى راشد أن المرأة سر الحياة ، يتشكك فى طهرها وعفافها بطل الرواية • فراشد يرى أنها « •• منها النور ، ومنها الحبور •• هى الزهرة الحية فى بستان الوجود ••• عينة من الجنة فى دنيانا الفانية » (٢٠) • بل ان حسنى (بطل الرواية) يدرك اختلافهما فى تناول الحياة والتعامل معها فيقول : كنت أنا انظر الى الحياة نظرة مترددة متحيرة قلقة ، فيها خوف وفيها تشكك •• كنظرتى الى المرأة سواء بسواء • أما هو فكان ساخرا يعبر عن فرحه بابتسامة ويعبر عن أسفه بابتسامه ، بل ربما قهقه ان خانته الفرصة • وكان ناجحا فى كل شىء الا فى حياته المدرسية » (٢١) • ويظل مثل ذلك الصديق يلاحق البطل فى رواياته جميعا ، وان اختلف دوره فى بعضها عن دوره فى بعضها الآخر •

وينجح المؤلف فى تصوير مشاعر بطله وهو طفل فى القرية ، قبل أن

---

(١٨) شجرة اللبلاب ص ٤ •

(١٩) المرجع نفسه ص ٤٣ •

(٢٠) المرجع نفسه ص ٩٣

(٢١) المرجع نفسه ص ٩١ وانظر المزيد عن ذلك فى ص ٩٠ ، ٩١ وانظر ص ١١٩

يغادرها الى القاهرة لاستكمال تعليمه • ومن المواقف الرائعة التى ينجح فى نقلها الى قارئه ، وصفه لموقف البطل وهو طفل من زوج خالته الذى كان يضيق بزياراته ، وبالذات لأن خالته تقدم له الطعام يقول : « ومما زاد أمرى حرجا عندما أننى تخيلت أن زوج خالتى بدأ يضيق بى ، وكان رجلا عملاقا ضخما تلمع الفظاظة فى تضاريس وجهه الغليظ • وقد صادف أن دخل مرة أو مرتين فرآنى وأنا أطعم • فنظر الى من ذورة قامته وأنا جالس وهو واقف ، نظرة نفذت أشعتها من خلال شاربه الغزير المهوش • فجعلتنى أمسك عن المضغ برهة حتى يحول نظره عنى » (٢٢) • وعلى أية حال ، فاننا نرى شخصيات الرواية جميعها من الخارج ماعدا البطل الذى نراه من الداخل أيضا وذلك لأنه الراوى •

***

ورواية الوشاح الأبيض ١٩٥١ تقدم لنا فتاة تدعى درية ، فى رحلة كفاح طويل تتمكن بعده من تحقيق المجد والشهرة • وتكمن مشكلتها فى فقر أسرتها فأبوها محضر محدود الدخل ، ولكنــه لا ينفق دخله كله على أسرته ، بل يسكر أيضا • ولما كانت الفتاة جميلة فقد أدركت أنها لن تجنى من جمالها ما تجنيه الحسناوات فى البيئات الغنية ، بل أحست بغرابة وضعها هذا فيما كانت تسمعة من عبارات الرثاء التى تصدر عن بعض الجالسين على المقهى الذى كانت تمر به وهى فى طريقها الى المدرسة • وهكذا تضطر للعمل بعد الحصول على الثانوية العامة لتعول أسرتها ، وبخاصة بعد أن مرض أبوها وزادت أعباء الأسرة • وهى لكى تعمل كان لابد أن تقطع صلتها « براضى » الذى أحبها وأحبته وتواعدا على الزواج • وتضطر الى ترك عملها كمدرسة فى مدينة طنطا بعد أن ضاقت بزميلاتها ، وعملت فى القاهرة فى محل للأزياء ، واستطاعت أن تتعرف على زوجة موسيقى كبير ، ليست لها أولاد • ونجحت فى أن تصبح مغنية مشهورة ، وتزوجت من ملحن كبير يدعى منصور ، وهجرت الفن بناء على رغبته ثم ما لبثت بعد وفاة طفلها أن أحست بالوحدة بعد أن انصرف زوجها الى فنه وأخذ يلحن لمغنية أخرى قيل انها ستخلفها على عرش الغناء • وقررت العودة الى الفن وهجر منزل الزوجية واستطاعت أن تعود الى المجد والشهرة من جديد ولكنها خسرت حياة الأسرة التى خرجت منها بطفلة •

---

(٢٢) المرجع نفسه ص ٣٥

هذا هو الخيط الرئيسى لأحداث القصة ، ولكن هناك خيوطا أخرى فرعية ، فراضى حبيب درية يعمل بالمنائر بعد أن قطعت صلتها به ، حتى يسلوها ، ثم ينقل للعمل بالسكه الحديد ، ويلتقى بدرية مصادفة فتنصحة بالزواج والنسيان • وتخبره بأنها مرتبطة بشخص آخر • فيتزوج بأخت زوجة أخيه وتدعى زينب ، وينجب منها ،

وهناك قصة « سعيد » الشاعر المغمور برغم موهبته كما يرى ذلك المؤلف • ونعلم حياته وقصة عزبة أبيه التى لا يحصل منها الا على اليسير فى حين يستولى على خيراتها أحد المجرمين من الأعراب يدعى « أبو الغيط » • ويقع فى حب درية التى لا تعيره التفاتا كما فعلت مع صاحبه ، لأنها كانت عندئذ تحب الملحن منصور ، والغريب أن سعيد يعتقد أنها تحبه لمجرد سماعه اياها وهى تتحدث فى موضوع عاطفى •

وتختفى نادية من حياة « درية » بعد أن ذهبت الأخيرة للعمل فى طنطا مدرسة ، وكانت وظيفتها فى القسم السابق من الرواية هى اقامة مقابلة بين حظ نادية الثرية وحظ درية الفقيرة : تقول درية لنادية : « •• حقق الله لك آمالك يانادية ، انك تمشين ياصديقتى على طريق ممهد تظل الأشجار جانبية ، أما أنا ففى مفترق طرق عارية خاوية غامضة مجهولة » (٢٣) • كما كانت أحلام كلتيهما تختلف عن أحلام صديقتها : « •• كانت نادية تنظر الى اكاليل الفل وهو يرف على رأس العروس فيخيل اليها أنه أخطاها وأنها هى انتى كانت مقصودة به ، وأن يدا تنظمة من أجلها ليكون على رأسها بعد وقت غير طويل » (٢٤) • أما درية فكانت تحلم بشىء آخر بعد تخرجها يصوره المؤلف بقوله : « •• وخلت كل منهما الى نفسها لتستدعى آمالها ، فرأتها دريه فى كيس ضخم مفعم بالمال ورأتها صديقتها فى وجه صبوح يبتسم لها ، ويكافح من أجلها ، وهى مسترخية على أحد المقاعد المستطيلة فى بيته تعمل صدرية من الصوف » (٢٥) • أما وقد أدت نادية هذا الدور فقد اختفت من الرواية تماما حتى قررت درية أن تزور منصور زيارة مفاجئة فى بيته قبل أن يتزوجا بوقت قصير فرأت صورة صديقتها

---

(٢٣) (٢٤) الوشاح الابيض ص ٣٦

(٢٥) المرجع السابق ص ٣٥

نادية معلقة على الحائط ، وهنا يخبرنا منصور أنه تزوجها وأنها توفيت بعد أن أنجب منها ولدا يربيه جده • وهنا تحدث أزمة مفتعلة بينها وبين منصور ولا يلبثان أن يتزوجا •

وقد أدى تتبع المؤلف لحياة الشخصيات الأخرى الى تفكك الرواية ، فالمؤلف مثلا يصور حياة راضى فى البحر وهو يعمل فى مصلحة المنائر تتبعا بيانيا مستفيضا لا يخلو من تكلف •

ويحكم القدر مصائر الشخصيات ، وتحس الشخصيات بسطوته وتعلن ذلك فى صراحة : فيقول راضى : « •• ولكنى أرى الأحداث ترمى بنا جزافا وتعاملنا بطريقة لا تخلو من السخرية » (٢٦) وتقول درية لمنصور : « •• لقد خلقتنى المقادير » (٢٧) • ويقول عن راضى : « •• وتأكد بينه وبين نفسه أن الزمان فرق بينه وبين درية ، وأنه لا سبيل الى أن يجمعها رباط من أى نوع كان ، لأن مركبة الحظ قطعت بها شوطا طويلا من طريق السعادة ، وهو الموظف المغمور الذى تستهلك الدولة زهرة عمره بجنيهات لا تقنع الشاب ولا تكرم الشيخوخة !! كأنه مصاب بالدوار فسلم للأقدار سفينته الضعيفة لترسيها على أى أرض تشاء » (٢٨) • ويتحدث عن دور المقادير فى تسطير مصائر البشر وهو يحدثنا عن ضعف راضى وايجابية منصور حيال موقفهما من درية • ففى حين قنع الأول بحب سلبى ، كافح الثانى للحصول عليها يقول : « لكنها المقادير تلهب ظهرنا بسياط لا نراها وتسوقنا الى حيث نشقى أو الى حيث نسعد » (٢٩) • وقديما قال فورستر : لا مكان للقضاء والقدر فى الرواية ، لأنه رأى أن الرواية عمل فنى يحكمه المنطق أو بعبارة أخرى يحكمه منطق البناء الفنى ، ولا تحكمه قوى خارجية ، كالقدر أو المصادفة • ولذا فبناء الأعمال الفنية على مفهوم قدرى يقلل من الاقتناع بها ويجعل سلوك الشخصيات غير مقنع ، وهذا ما يجعل كثيرا من شخصيات الرواية ضعيفا مستسلما للقدر •

---

(٢٦) المرجع السابق ص ٦٦

(٢٧) المرجع نفسه ص ١٠١ وانظر أيضا حديث المؤلف عن الأقدار ص ٨٣

(٢٨) المرجع نفسه ص ١٠٤

(٢٩) المرجع نفسه ص ١٠٥

وتتحدث درية بطلة الرواية عن دور القدر فى حياتها : فتقول لمنصور : « ٠٠ لكن الزمان الذى يجد بنا مسرعا فى طريقة المجهول كشف لى أنهـا جد عظيمة ، ولعل هذا قد حملنى على ألا أخضع حياتى لقوانين منطقية لأن للأقدار منطقا مستقلا وحسابا لا نعرف أرقامه » (٣٠) ٠ ولكن الحقيقة أن درية تركت المدرسة فى طنطا ، وحاولت جاهدة أن تشق طريقها فى الحياة ، فعملت فى محل أزياء ثم مغنية ، ولم تسلم قلبها لأول طارق ، بل وازنت وأختارت ، ثم هى بعد تهجر فنها لتعود اليه مضحية بأسرتها أو بحياتها الزوجية ٠ مما يجعلها تلعب الدور الأول فى تقرير مصير نفسـها وبنـاء مستقبلها ٠

وتكون الأم فى تلك الرواية أكثر ايجابية من الرجل وحرصا على مستقبل أسرتها ، فأم « درية » تكافح من أجل أولادها فى حين يكون الأب سكيرا ، وتثور المشاحنات بينهما ، والرجل لا يعبأ بشىء ، ويترك كل العبء على الزوجة ولا يكف عن شرب الخمر ، وان لم يكن يفرط فى الشراب ٠ كما أن درية تكون حريصة على أسرتها وتعمل لتعولها دون تذمر أو شكوى ، وتضحى بحبها فى سبيل ذلك ٠

ولا تستفيد الشخصيات فى الرواية من تجارب الحياة ولا تتطور ، بل تظل تسلك سلوكا مفرطا فى الرومانسية ، كما تبدو مغلقة على نفسها غير متفاعلة مع البيئة المحيطة بها تفاعلا كافيـا ٠ وتخضع للنزعة الأخـلاقية المحافظة التى تسيطر على الكاتب ٠ وتظل – فى الغالب – أنماطا تتسم بسمة غالبة ٠ فالأستاذ « مخيمر » رجل لا يرعى أسرته الرعاية الكافية ، ويترك كل أمور أسرته تسير كما أتفق ، كما أنه ثرثار قوى الحنجرة ٠ ويظل كذلك حتى – يموت ٠ كما تكون « عايدة » زميلة « درية » بطلة الرواية فى طنطا ، مجرد نمط يصفه المؤلف بقوله : « ذات الجمال الطائش ، والقلب المتهافت ، والعواطف التى تتسع لمائة حبيب » (٣١) ٠ وتكون زميلتها «عفيفة» قبيحة ومتعطشة للحياة ، ويصفها بقوله : « كانت كبيرة السن بين شابات ثلاث لا يزلن زهرات فى أول الموسم ، تخطت الأربعين ، وبقيت تحت خطاها

---

(٣٠) المرجع نفسه ص ١٢١

(٣١) المرجع نفسه ص ٥٨

فى اثر قطار الشباب والزواج والحب ، وتبذل فى سبيل اللحاق به حيلا تظنها جديدة فعالة محبوكة ، دون أن تدرى أن حيلها مع الأسف قديمة مهلهلة تثير الابتسام • ثم هى بعد ذلك فارهة طويلة تداخلت أجزاء جسدها حتى غاب الخصر وظهرت الأرداف ، وبرز الصدر على هيئة تحبب الرجال فى الصدور المقفرة الممسوحة لأن النقيض قد يكون خيرا من نقيضه • وتلوح من وراء منظارها السميك عينان فيهما اتســاع غير جميل ، وفى مقلتيها الكبيرتين جحوظ قليل » (٣٢) •

ولم تظفر بذلك الوصف المستفيض شــخصية أخرى من شخصيات الرواية ، ولا حتى بطلتها درية ، برغم أن الفتاة شخصية ثانوية تختفى من الرواية ، هى والزميلات الأخريات لدرية بعد مغادرة الأخيرة مدينة طنطا لتعمل فى محل لبيع الأزياء فى القاهرة • ثم لماذا هذا الاسراف فى تشويه الشخصية وجعلها مسخة بلا هدف واضح •

وتلعب الطبيعة أحيانا دورا فنيا مقصودا ، اذ تعكس ما تحس به الشخصيات من حزن أو قلق أو سعادة • ففى الخريف تودع درية صديقتها نادية وداعا لا لقاء بعده ، ويتم فيه كذلك الانفصال بينها وبين حبيبها راضى • ومن أمثلة ذلك الربط بين مشاعر الشخصية والطبيعة موقف درية وراضى فى لقائها الأخير الذى انفصلا بعده : « •• وكانا جالسين على كرسى مستطيل فوق قنطرة مقوسة أقيمت على بركة طفا على وجهها البشنين ، فى احدى الحدائق العامة • غير أن الدنيا كلها كانت خرابا فلم يكن حولهما فى الحـديقة أحد الا بعض الفنــانين الهواة الذين يعجبهم من وجــه الكون ما لا يعجب كل الناس • فهناك أحد الرسامين وقف منهمكا فى رسم لوحته الزيتية • وهناك فى الطرف الآخر موسيقى صغير افترش الحشيش وجعل يداعب أوتار عوده • أما هما فكانا ينظران الى الشمس الغاربة السقيمة وهى ترسل بأشعتها متعثرة بين فروع احـدى الأشــجار الضخمة ويســتمعان برهة الى نغمة ناشزة يرسلها الموسيقى الصغير ثم ينصتان برهة أخرى

---

(٣٢) المرجع نفسه ص ٥٣ ، ٥٤

الى خشخشة الأوراق التى تتساقط من الشجر ذاوية جافة فلا تلبث زوبعة خفيفة أن تأخذها وتدور بها فى الماشى الى مدى غير طويل ٠

كل شىء يؤذن بالفراق حتى الطبيعة كان على أفقها وجوم » (٢٣) ٠ ولايتركنا المؤلف نستنتج أنه يربط بين الموقف وبين الطبيعة بل يصرح بذلك، وكان جديرا به ألا يفعل ٠ وقد لا يرتبط وصف الطبيعة بالموقف ولا بمشاعر الشخصيات وهو الغالب ٠ بل يكاد هذا الوصف يكون بيانيا مثل وصف الغروب أثناء ذهاب الشاعر سعيد يطالب « أبو الغيط » مستأجر عزبته بشىء من المال : « رأى الأفق دائرة كاملة لا يقطعها بناء ، وبدت الدنيا كهفا مظلما لا يخفق فى جوفه شعاع واحد ٠ وسمع أزيز الريح فى أسلاك التليفون وبعض شجيرات متجاورات من أشجار « الجزورينا » تجمعت على مقربة من المحطة فبدت أشباحها أشد سوادا من حلكة الليل » (٢٤) ٠

ويصور المؤلف البيئة التى نشأت فيها درية والتى يغلب عليها الفقر ، والجمود ، ولكنه وصف لا يخلو من الصنعة البديعية (٢٥) والمبالغة ٠ مثل قوله : « ٠٠ لو فتش الفقر فى الأحياء الخالية عن مسكن يرتضيه ما اختار الا هذا المكان ، لأن هناك تآلفا عجيبا بين الساكن والمسكون ٠ كالتآلف بين القواقع والأحياء المنطوية فى أجوافها » (٢٦) ٠

---

(٢٣) المرجع نفسه ص ٤٣ وانظر أيضا ٤٥ ، ٤٦

(٢٤) المرجع نفسه ص ١١٢ ، ١١٣

(٢٥) المرجع ص ٥

(٢٦) المرجع نفسه ص ٦

رواية « شمس الخريف » ١٩٥٣

يقول ارنست فيشر : « وكان من التجارب الأساسية التى حرصت الرومانسية على تصويرها ، تجربة الفرد الذى يقف وحيدا فى مواجهة العالم ، والذى يشعر بأن كيانه ناقص غير مكتمل ـ كأثر من آثار تقسيم العمل والتخصص ـ وما يتبع ذلك من تفتيت الحياة الى أجزاء ضئيلة لا يبدو بينها رابط » (٣٧) • وهذا هو أصدق وصف يمكن أن يوصف به بطل محمد عبد الحليم عبد الله ، فكثير من أبطاله يواجه الحياة بمفرده دون معين ، أو قد يعز عليه العثور عليه •• ويشق طريقة فى صعوبة بالغة حتى يصل فى النهاية الى شاطىء الأمان • وبطل « شمس الخريف » مثال طيب على ما نقول ، فهو يتعرض لسوء معاملة أمه بعد وفاة أبيه وزواجها من آخر ، مما جعله يصلى نار الغيرة ، ويجاهر بالسخط ، فيتعرض لسوء المعاملة من جانب أمه وزوجها معا • كما كان دائم الاخفاق فى دراسته • ومن ثم يفر من المنزل باحثا عن عمل يعيش منه ، ويتعرض فى أثناء ذلك الى ألوان مختلفة من المتاعب ، ثم يعثر ـ فى مشقة ـ على وظيفة كاتب فى فندق لاتحقق له الاستقرار المنشود ولكنه يحصل على وظيفة ساعى بريد ، يسوقها الحظ اليه • فقد تشابه اسمه مع شخص آخر كان قد وصى عليه للتعيين فى الوظيفة أحد النواب ، فعين هو ولم يعين الشخص الآخر • ويتعرف فى أثناء تأدية عمله على احدى السيدات وتتطور علاقتهما الى حب جارف ، ومع أن هذه العاطفة سبقتها تجربة أخرى له مع فتاة قروية تدعى « سكينة » ، تعرف عليها أثناء جولاته فى الريف بعد هروبه من المدرسة وهو يركب دراجته فى احدى قرى محافظة البحيرة ، فانه يتزوج بالسيدة ، وتدعى السيدة « ش » بعد أن خبا حبه لسكينة بمرور الزمن ، وانقطاع الرسائل بينهما بالتدريج • ويكمل تعليمه بعد ان تزوج وأنجب طفلا • وتموت زوجته مصدورة بعد أن دلت كل الدلائل على استقرار تلك الحياة • وتترك له طفلا يدعى وحيد ، فيحدب عليه ، ويرعاه بحرص شديد ، يعوضه عن فقدان أمه ، ويكبر هذا الطفل ، ويصبح طبيبا متخصصا فى علاج الأمراض الصدرية التى أودت بحياة أمة •

---

(٣٧) ارنست فيشر ، الاشتراكية والفن ، ص ٨٣ ، ٨٤

وقد صور المؤلف شخصية أم البطل بنجاح ، فهى امرأة عصبية ، سليطة اللسان ، تحطم زوجها عندما تبور تجارته معيرة اياه بذلك ، وكادت تحطم أبنها بسوء معاملتها له ، فحولته الى تلميذ فاشل ، لا يركز على دروسه وقد رسم المؤلف شخصية السيدة « ش » رسما طيبا ، فصور كفاحها ، ثم صور زلتها التى بدرت منها بغير قصد ، كما صور كفاح مختار بطل الرواية ، وهو كأبطال محمد عبد الحليم عبد الله يحتاج الى عون الآخرين ، واذا كان غيره يتعلق ببطل واحد ويستشيره فانه يستشير صديقين ، يكون لرأيهما أثر كبير على مستقبل حياته ٠ فصديقه أنور أمين يزين له الفرار من المدرسة والبيت ، ويحدد له الأماكن التى يمكنه أن يبيت فيها ، ويرسم له أوجه الانفاق ٠ أما صديقه الثانى فيدفعه الى العمل بمصلحة البريد ، التى يعمل بها ، فيغير حياته بكاملها ٠

وتتسم كثير من شخصياته بالغرابة،فأبو الفتوح افندى خيالى،ويستغل هذا الخيال فى نسج قصص لاتستند الى الحقيقة والواقع ، ويطلب من جليسه أن يصدق تلك القصص ٠ وعباس زوج أم مختار ، قبيح الشكل ، أكرش ، مصاب بزكام يعلو شخيره طول الليل ٠ كما أن أم مختار نفسها ليست بالمرأة العادية،فهى كثيرة الاستحمام بعد الزواج،وهو مأخذ يأخذه عليها الكاتب فيطلق عليها لقب عربة الترمس ٠ وفضلا عن أنها عصبية ، تتخلى عن ولدها فى سبيل الزواج ، دون أن تفكر فى مستقبله ، أو تحزن لفقده ، وهو ما لا تقدم عليه امرأة عادية بمثل تلك الصورة التى تجردها من عاطفة الأمومة ٠

وتكاد الرواية تنقسم الى قسمين : أحدهما يصور حياة بطلها فى أثناء حياة أبيه ، وبعد وفاته وزواج أمه ، وما ينشأ عنه من صراع بينها وبينه بسبب زوجها ، ثم هربه ، وبحثه عن عمل حتى يعثر على وظيفة كاتب بأحد الفنادق ٠ وثانيهما : ويصور علاقته بالسيدة « ف » ، وما يربط بينهما من هوى عنيف ، ثم سردها لماضيها فى خطابات ترسلها اليه ، وزواجهما بعد ذلك ، وانجاب طفلهما وحيد ، ثم وفاتها ٠ فى حين نرى طفلهما وهو يكبر ويستكمل دراسته الطبية ، ويصبح طبيبا ٠

وبهذه الرواية ــ كغيرها من روايات الكاتب الأخرى كثير من الحكم التى تساق على لسان الراوى أو على لسان السيدة « ف » ٠ كما أنه

يدافع عن المرأة الخاطئة دفاعا طويلا يجريه على لسان تلك السيدة مما يؤدى الى توقف الحدث كما أنه يسوق بعض المعلومات التى تعترض سير الأحداث كذلك ، ويعد علم القارىء بها أمرا لا جدال فيه ٠ كأن يقول : « ٠٠ دعنى أقطع عليك سياق قصتى فترة لن ترهق ذهنك لأسألك فى بساطة : ما الذى يحدث لو تخلف عنصر من هذه العناصر ؟ أعنى لو أن دمنهور لم تلتق بالمنصورة ؟ وأن الاسكندرية لم تجمع بين هذين الفردين ؟ أو ماذا ؟ – وهو أتفه ما يجوز – لو أن هذين النصفين المتطابقين تخاصما ليلتئذ ؟ أو فزعهما طارق ؟ لو وقع أحد هذه الفروض ما سمعت قصة « مختار » ولارتاح هو نفسه من أمور يراها غير ضرورية بالنسبة اليه ، ويعتقد أن فرضها عليه لا يفيد هذه الرقعة الكبرى التى نسميها العالم !! » (٣٨) ٠ كما أن المؤلف يسبق الحوادث فيوحى الى القارىء بزواج أم مختار المتوقع بعد وفاة زوجها ٠ كما يذكر أن زوجة مختار ستموت لا محالة بعد ما أصيبت بالنزيف ٠

ويطغى اهتمام المؤلف بلغته فى كثير من الأحيان على الجوانب الفنية للرواية ، فهو يلح على ايراد التشبيه ، وقد لاحظ ذلك الدكتور عبد القادر القط ، وانتقى ثلاثة تشبيهات أساء استخدامها المؤلف ، لأنها لا تخدم غرضا فنيا ٠ وتلك التشبيهات هى : « وقفت أرقب الحقل وأتأمل جزءا منه نهضت فيه شجيرات البسلة باسمة عن ازهار ذات أجنحة كأنها فراشات ، وأتأمل جزءا آخر منه قد نهضت منه لفائف الكرنب واقفه على رءوسها الطويلة كما يقف سرب من النعام مختلف الأحجام كل على رجل واحدة ، وأتأمل ثمار البرتقال حمراء زاهية مستديرة لامعة ، كأنها بين خضرة الأعضاء شعلة بلا دخان » (٣٩) ٠ ويعلق على تلك التشبيهات بقوله : « ٠٠ ويسرف المؤلف هو أيضا فى وصف الطبيعة حتى تصبح مظاهرها عنده مجرد صور فنية تستدعى كل منها صورة أخرى تماثلها ٠ ولذلك يحس القارىء بولع المؤلف بالتشبيه فى كل صفحة من صفحات الرواية » (٤٠) ٠

وتصاب لغة المؤلف بالتكلف فى أحيان كثيرة لحرصة على الأناقة اللغوية،

---

(٣٨) شمس الخريف ص ١٥

(٣٩) دكتور عبد القادر القط ، فى الادب العربى الحديث ص ١٥٨

(٤٠) المرجع السابق ص ١٥٨

فتلحق الضرر بالسرد والتحليل ، ويمتد التكلف الى لغة الشخصيات ، فتأتى مصنوعة متكلفة • فسكينة القروية ، ومختار التلميذ الخائب يتحادثان هكذا : « فسألتنى : لماذا لا نرى بينها غرابا غير أسود ؟ كلها سود • فقلت ما جاد به خاطرى وان كان قولا لا طائل تحته : لأنه من رهبان الطيور ؟ لكنها استعذبت قولى ، فقالت : هذا حسن • اذن فلاتنس • سأحبك مادامت الغربان فى ملابس الرهبان والهدهد يبحث عن كنوز سليمان » (٤١) •

ويلعب القدر دورا خطيرا فى تحديد مصائر الشخصيات ، وبخاصة البطل • فافلاس أبيه ، وموته ، أمران يسأل عنهما القدر وحده • وكذلك يكون رسوبه فى الامتحان • ويتدخل القدر كذلك فيحول دون زواج « مختار » من سكينة الفتاة القروية التى أحبها ، اذ يموت أبوها بعد سفر مختار الى القاهرة بعامين ، فتتزوج وترحل من القرية هى رأسرتها • ويحرم القدر البطل من زوجته السيدة « ف » فيعيش وحيدا ، بعد أن ناء • بالأعباء الماليه وهو يعالجها أثناء مرضها •

وتحكم قيم أخلاقية معينة تصوره للشخصيات ، فهو يدافع عن الزوجة اذا وقعت فى الخطيئة لأن زوجها شغل عنها ، ثم يقوم ذلك الزوج بطلاقها عقابا لها ، فتعيش للتكفير عن تلك الخطيئة • وهى تقدم فى صورة تتسم بالبراءة والرقة فى المشاعر ، فتغدق على زوجها الثانى من عطفها وحنانها ، وكأن المؤلف يقابل بينها وبين أم مختار التى تضحى بابنها فى سبيل أن تتزوج من رجل كريه قبيح الصورة • كما أنها حطمت زوجها الأول بغبائها وعنادها ، فى حين خلقت السيدة ـ برغم خطيئتها ـ من زوجها شخصا آخر •

وقد راعى المؤلف فى رسمه لشخصية مختار الظروف والتقاليد الاجتماعية التى يعيش فى ظلها وأثرها فى تكوينه النفسى والثقافى كما وضع فى اعتباره الطبيعة البشرية ذاتها • ومن ثم فانه لا يقبل على زواجه من السيدة «ف» الا بعد صراع نفسى مرير ـ برغم حبه الشديد لها ، بل انه يحاول التخلص من سيطرة هذا الحب على نفسه فلا يستطيع •

قلنا ان البطل فى روايات المؤلف يكون فى حاجة الى صديق أو أكثر

---

(٤١) شمس الخريف ص ١٣٠

يستشيرة فى أموره الهامة التى يرى أنه لا يستطيع أن يتخذ فيها قرارا وحده. وقد يضر هذا الصديق صاحبه ، وقد ينفعه . ولكننا فى هذه الرواية نجد ام مختار وهى شخصية ثانوية تخضع لتأثير صديقتها زينب ، فتتزوج من عباس افندى عملا بنصيحتها ، بل وتصبح وكأنها مستشارتها فى أمورها الخاصة .

وتعكس الطبيعة ـ أحيانا ـ مشاعر احدى الشخصيات وبخاصة البطل . وقد تكون مقصودة لذاتها أحيانا أخرى . ومن ثم تكون جميلة اذا كان البطل يجتاز ظروفا مرضية ، وتكون قبيحة اذا كان يمر بمشكلة أو حالة نفسية محزنة . فعندما تضع زوجة مختار طفلها يسقط المطر غزيرا مما يضطره الى الصعود الى سطح الغرفة ليزيل من فوقه مياه المطر ، التى تتساقط من سقفها ، فى حين تكون الزوجة تعانى من آلام المخاض ، وهذا كله ينبىء عن موت الزوجة . أو بعبارة أخرى يريد له أن يهيىء القارىء لوفاة الزوجة ، لأن أوصاف الطبيعة العنيفة أو القبيحة تؤدى هذه الوظيفة فى أعما لأخرى له .

ويمكن أن نتساءل الآن عن الدور الذى تلعبه الرومانسيه عند المؤلف فى مجتمع قطع شوطا طويلا من التحضر ، وأصبحت له مشاكل جديدة أكثر عمقا مما كان عليه الأمر فى مطلع القرن العشرين ؟ ويجيب على هذا التساؤل الدكتور عبد القادر القط بقوله : « .. واذا كانت الرومانسية قد أدت دورها التقدمى حين بدأ تطور المجتمع فى مطلع القرن فانها توشك الآن أن تفقد وظيفتها الاجتماعية والنفسية اذا لم تمتزج بكثير من الواقعية التى تصور ماجد عند الناس من وعى بمشكلات الحياة والمجتمع » (٤٢) .

***

وتصور رواية « غصن الزيتون ١٩٥٥ كفاح بطلها الذى تتركز مأساته فى حبه لعطيات تلميذته . وهو انسان غير مستقر العواطف ، بل يدرك أنه مريض ، ويكاد مرضه يتمثل فى شعوره بالنقص . وكانت عطيات حسناء ، وتحب جمال افندى وهو شاب وسيم ممتلىء بالحيوية . ولكن الصدفة

---

(٤٢) د . عبد القادر القط « فى الأدب العربى الحديث . ص ١٥١٩ . وقد نشرت هذه المقالة التى أخذنا منها هذا النص فى مجلة الشهر يونيو ١٩٥٨ .

المحضة تضعها فى طريق البطل عندما يلتقى بها فى أحد الشوارع ، فيصحبها الى شقته ويعاشرها معاشرة الأزواج فى يسر بالغ ، ثم يتزوجها • ويؤدى احساسه بالنقص الذى يثور لديه بسبب حب زوجته لزميلة جمال افندى ، الى شعوره بالآم نفسية مبرحة • وقد خانته عطيات لأنه كان عقيما ، وكانت تريد اشباع غريزة الأمومة لديها ، لأنه لم يكن يحقق لها ما كانت تجده لدى زميله الشاب الذى كانت تحبه •

ويتضح ضعف الزوج عندما يكتشف العلاقة الآثمة بينها وبين جمال افندى ، فهو بدلا من أن يطلقها يذهب الى عشيقها يرجوه أن يتركه وشأنه ، وأن يبتعد عن زوجته • وهو سلوك يكشف عن ضعفه الشديد غير المألوف عادة فى الأزواج فى مثل هذه الأحوال • ويزداد ضعفه وضوحا عندما يلجأ الى ناظر المدرسة التى يعمل بها فى الفيوم ليساعده فى ايجاد حل لمشكلته العائلية • ويستعين كذلك بنصائح زميله حمودة ليستفيد بنصائحه وارشاداته • ويبلغ تأثره بأقوال الأخير درجة غريبة ، فعندما يصف حموده ، جمال افندى ببعض الأوصاف يردد هو هذه الأوصاف بحرفيتها عندما يذهب للقاء جمال افندى طالبا اليه أن يكف عن الاستمرار فى اقامه علاقته غير المشروعة بامرأته •

وتروى الرواية بضمير المتكلم ، مما يحتم على الراوى وهو بطلها أن يكشف عما يدور بنفسه من مشاعر وأفكار ، مما يتح للقارىء أن يتعرف على البطل الى قدر لا بأس به من الوضوح ، ولكنه لا يتعرف على الشخصيات الأخرى بالوضوح المماثل أو المقارب أو المطلوب • فنحن نرى تلك الشخصيات من الخارج ، كما يراها البطل الرلوية • وهى فى الغالب أرقام لا يسمح لها بالتطور ، وتعرض بايجاز شديد ، وقد ألصقت بكل منها صفة أو صفات يرددها الراوية كلما تحدث عن احداها • فحمو البطل لا يذكر الا مصحوبا بالحديث عن شبشبه الملفق ، وعندما يتحيث عن مريم خادمة عطيات يصفها بالمتآكله • وعندما يتحدث عن فراش المدرسة ، يذكر أنه أعور وعينه الأخرى بها بعض رمد • وهكذا •

وقد وصفت « عطيات » لأنها شخصية رئيسية من شخصيات الرواية وصفا جسديا طيبا ، فالمؤلف يصور أنوثتها ، ورغبتها الجنسية الجامحة التى

جعلت زوجها يهزل ويشحب (وهو ما يحدث لبطل الرواية السابقة) أيضا ٠ كما اهتم المؤلف برسم شخصية جمال افندى نفسيا وجسميا ، ولكن محور الاهتمام فى التشخيص يفوز به بطل الرواية باعتباره أهم شخصياتها ٠

ولو عدنا الى الطريقة التى حـرك بها المؤلف عطيات ، لوجدنا أن سقوطها لم يكن مبررا بالدرجة الكافية ، أو على الأقل تم بسهوله يرفضها العقل والمنطق ٠ كما كان زوجها يتصرف تصرفات غاية فى الغرابة مثلما فعل عندما أخبرته بأن طالب التجارة الذى يسكن المنزل نفسه يطرق بابها بحجة السؤال عن شقة التومرجى ٠ يقول لها « ٠٠ دعيه يأكلك ان استطاع ذلك » ٠

وعلى العموم فان عقلية البطل فى تلك الرواية ليست من النضج والرحابة بحيث تمكنه من رؤية غيره من الشخصيات رؤية تتسم بالعمق ، وكذلك الحال بالنسبة للأحداث ، فهو يراها فى سذاجة بالغة ٠ كما أن حياته ليست من الخصوبة بالقدر الذى يدهش القارىء أو يقنعه بامكان وجوده على صورته تلك فى واقع الحياة ٠ وتصبح الرواية ضعيفة لهذا السبب ، فالبطل الرلوية لم يستطع أن يركز على الجوهرى والهام ، ولم يستطع أن يفهم الدوافع الانسانية حق الفهم ٠

ويبدو لى أن الشخصية الريفية العاجزة عن التكيف مع الواقع فى المدينة ، والتى تتمسك بقيم تخالف ــ أحيانا ــ قيم المدينة ، تمثل موقفا للمؤلف من الحضارة والمدنية بوجه عام ٠ فالمدينة قد تبهر الريفى ، ولكنه لا يندمج فيها ولا يفهمها ، ويعجز عن التكيف مع ظروف الحياة فيها ٠ أو التفاهم الصحيح مع من يلتقى بهم من الناس فى رحابها وبخاصة المرأة ٠ ويبد وأن المؤلف كان سيىء الرأى فى المرأة التى تعيش فى المدينة بوجـه عـام ٠

وقد كان موضوع الرواية الرئيسى وهو علاقة البطل بتلميذته عطيات ، وزوجته بعد ذلك ، كثيرا الحواشى ، يتخلله الحشو والتزيد ، فقصة حمودة أفندى وزوجته قبل الزواج ، شىء طريف فى ذاته ولكنه لا يدخل فى نسيج الرواية ٠ أما المسرحية التى مثلتها عطيات مع جمال أفندى ، فهى ذات دلالة على مدى التوافق العاطفى بينهما ٠ ولكن قصة ولى الأمر والريال

لامبرر لوجودها بالرواية • ومن أمثلة التزيد فى الوصف ، الحوار الفضفاض، الذى لا يخدم هدفا فنيا واضحا • ويوضح ما نقول النص التالى : « •• وطال الصمت ودخلت علينا دجاجة من الباب المفتوح • فقال وهى فى فراشها لتطردها « هش » فانفتح الحديث :

ـ عبده

ـ نعم يا أماه

ـ كان بودى أن أرى زوجتك مرة واحدة •

ـ سأصحبها معى فى فرصة أخرى •

ـ لكن أهى حامل ؟

فأطرقت خجلا كأننى أخفقت فى مشروع ، وقلت وأنا انظر الى نقش الحصير تحت أقدامى :

ـ لا ! !

ـ هل حدث أنها أسقطت جنينا ؟ !

ـ لا أيضا ! !

ـ طول هذه المدة ؟ !

فلم أرد ودخلت دجاجة أخرى فقالت لها « هش » ، ونادت زينب وأمرتها أن تحبس الدجاج • ثم سمعنا خوار ثور وصياح فلاح فابتسمت أمى وهى فى مجلسها ونظرها الى الخارج فرأيت على بسمتها نور من اهتدى الى الحقيقة » (٤٢) •

فليس ثمة داع لاقحام الدجاجة ، وخوار الثور ، و « هش » وأمثالها لكى يتحدث البطل مع أمه ، وهو حديث عادى كما رأينا • وقد يوفق المؤلف أحيانا الى عبارة ذات ايحاء ونفاذ ، وهو يصور مشاعر بطله مثل قوله بعد أن التقى بعطيات : « ولما تحول بصرى عن وجهها الى الطريق رأيت أحد الباعة وهو يقشر التين الشوكى على عربته ويقدم الى الزبائن بطرف المدية ثمار

---

(٤٣) المصدر نفسه ص ١٥٠ ، ١٥١

هذه الفاكهة الوحشية » (٤٤) • فهذه العبارة توحى بما تتسم به عطيات من جمال وتوحش فى أن واحد • وتكشف عن احساس البطل بهذا • ولكن أوصافه لا تكون كذلك دائما ، وانما تكون مسطحة مثل قوله : بعد حوار البطل مع أمه بشأن الزواج : « فغطيت وجهى بالجريدة ، ولم أرد عليها ، وحين أطللت من زواويتها مرة أخرى على الثلاث ، كانت أمى تستلقى فى سريرها على مقربة منى ، وكانت توحيده تطبق ثوبها ، وكانت زينب تجمع قشور البطاطس » (٤٥) • وباستطاعة المؤلف أن يستغنى عن هذا الوصف كله ، لأنه لا يقدم مغزى خاصا ، ولادلالة جديدة •

---

(٤٤) المصدر نفسه ص ٦٩

(٤٥) المصدر نفسه ص ٤٦

صدرت رواية من « أجل ولدى » فى سنة ١٩٥٧ ٠ وكانت الحركة الواقعية المصرية قد أصبحت هى المسيطرة على الحقل الروائى المصرى ، وقد أراد المؤلف أن يدلى بدلوه فى خضم هذا الاتجاه الجديد ، ومن ثم كان يهدف الى عرض لكفاح المرأة فى سبيل أولادها ، وهو كفا حلا يتوقف الا بالموت مثل كفاح أم فؤاد بطل الرواية ، التى تبذل صحتها وحياتها فى سبيل ابنها وبنتيها ٠ كما أن الست جليلة المرابية تتزوج رجلا فى سن أبيها ، سبق له الزواج ، ثم يموت تاركا اياها للضياع والجوع ، ولكنها تكافح لتربية ابنائها وتتهيأ لها فرصة الحياة المادية المستقرة عندما يوصى لها طبيب مسن بمبلغ من المال بعد وفاته مكافأة لها على اخلاصها فى رعايته وفى عملها ممرضة فى عيادته ٠ وهى بعد أن تتعرف على فؤاد الذى جاء يقترض منها بالربا ، وبعد ما تم بينهما من علاقة عاطفية قوية ، انتهت بالاتصال الجسدى المتكرر تقرر التوبة ، والحج من أجل ابنائها ٠ ولكننا نلاحظ أن عنوان الرواية وهو « من أجل ولدى » لم يكن يمثل موضوعها كله ، فالكاتب يريد لروايته أن تعبر عن موضوع آخر وهو « قصة الحب العائلى ، والمرأة فى صورها الأربع : أم وزوجة وحبيبة وعشيقة ٠٠ » ٠ وقد أدى هذا الموضوع الثانى الى تفكك الرواية فقصة فؤاد مع الست جليلة لامبرر لها ، وكان ينبغى على الكاتب أن يتوقف بعد وفاة الأم (أم فؤاد) وشروع الشاب فى البحث عن زوجة بعد أن أصبح وحيدا ٠ ولكن المؤلف مدفوعا باستكمال الصور الأربع للمرأة نسى حبكة روايته ٠ على أن القارىء يلاحظ أن الست أم زينب ، تمثل الأم المكافحة وكذلك الست أم فؤاد أيضا ، أما الحبيبة فهى زينب التى أحبت فؤاد فأعرض عنها وعندما تذكرها وفكر فى الزواج منها لقيها وقد تزوجت وبصحبتها زوجها البقال العجوز الذى كانت قد أخبرته بأنه تقدم لها من قبل ، وقد صدته وأفهمته أنها زوجة ، وزجة وفيه ، كما عرف أن أمها قد توفيت ٠ أما أما العشيقة فهى الست جليلة المرابية التى اتخذها فؤاد بطل الرواية عشيقة له ٠ وقد استوفى المؤلف تلك الجوانب الأربعة التى تمثلها المرأة ٠ ولكن على حساب البناء الروائى وفى تلك الرواية يقدم المؤلف فؤاد بطل الرواية منذ طفولته حتى يتجاوز الثلاثين عاما من العمر ، ويتوقف ـ بطبيعة الحال ـ عبد مراحل هامة من حياته وحياة أسرته ، وهو ـ بوجه عام ـ شخصية سلبية ضعيفة ، ومن سمات تلك السلبية أنه لا يحاول أن يعبر عن مشاعره بصراحة ويكذب على أمه أكثر من مرة ، بل عندما زارته زينب وأمها يخشى

اخبار أمه بذلك ، كما أنه يحتاج الى نصائح زميلة فهمى الذى عرف بعلاقاته النسائية المتعدده ، وبأنه يغشى دور الفجور ، والذى يطلب اليه أن يفتح له هذا المجال ويقوده الى احد تلك الدور فيخرج وقد أصيب بالتقزز والغثيان . ويعد فهمى نقيضا لفؤاد ، فهو ينغمس فى الرذيلة حتى يصاب بالسل الرئوى ولكن روحة المتفائلة القوية تساعده على أن يشفى ، ولكن المرض يعاوده بعد أن يتزوج ، وينتقل الى الصعيد . وتختفى أخباره تماما بعد ذلك من الرواية . ويحس المرء بأن ذلك الصديق مقحم على الرواية بل و لاأجاوز الصواب اذا قلت ان المؤلف يريد أن يعاقبه على مخالفته للمبادىء الأخلاقية ، فيموت بدائه برغم توبته وزواجه وهو اذ يختفى من الرواية ، يحل محله صديق جديد للبطل وهو الأستاذ بدران رئيسه الجديد ويقول البطل عنه : « .. فقد علمنى الأستاذ بدران أشياء لم أكن أعملها وفتح لى النوافذ على الهواء الطلق » (١) . بل ان أبا البطل يتأثر تأثرا شديدا بأقوال صديقة بكر افندى الذى كان يربى أولاده كما تربى الماشية دون رعاية أو عناية بقواعد النظافة أو التغذية . فيقول لامرأته « .. لقد أقسمت ليله أمس قسما عظيما أن انتهج معهم نفس الطريقة التى اختارها « بكر افندى » فى تربية مواشيه . سأجعل هذا الولد ينام بلا غطاء ويستحم فى الحارة بمياه المطر المتخلفة على الأرض . وسأجمع له بنفسى قشر البطيخ ليعيد نحته .. آه .. ويعيش !! ... فقط يارب !! » (٢) . ودائما يتعلم البطل من أصدقائه فعندما يلتقى بأحد زملائه أيام كان تلميذا بالمدرسة الثانوية وهو يصطحب طفله معه يقول الكاتب مصورا ذلك : « .. ووقفنا برهة نذكر الماضى ثم عرجنا على الحاضر فسألنى عن حالى ، وقال :

ـ هذا ابنى .. هلم .. هل عندك عروسة تناسبه ؟

ـ ولا عريس .

ـ أوه .. لم تخلف بعد ؟

ـ ولم أتزوج .

فقال بأسف من فجع فى أمل كان محققا تماما :

---

(١) من أجل ولدى ص ٢٠٤

(٢) المرجع السابق ص ٩١ وانظر أيضا ص ٧٠ ، ٨٠

ـ ياشيخ !! ٠٠ حرام !! ٠٠ ثم أردف ضاحكا : أطلق سراحه من أجل خاطرى ٠ أطلق سراحه ٠

فسألته :

ـ سراح من ؟ !

ـ سراح ولدك الذى تحبسه فى ظهرك ٠ من الجائز ٠ أنك تسىء الى البشرية اساءة لا يغفرها الله ٠

وفطنت فجأة الى أنه انتقل من المزاح الى الجد وكان يمسك بذراع ولده جيدا كأنه خائف أن يفر ٠ فقلت له بلهجة المكسوف :

ـ كيف تتكلم ؟ ما هذه الاساءة التى لن يغفرها الله ؟

ـ من الجائز أنك تحبس فى صلبك انسانا لو أطلقت سراحه لعاش حتى يخفف عن البشرية آلامها بمخترع من المخترعات » (٣) ٠

ونرى معظم الشخصيات من الخارج ، وهى نتيجة طبيعية للقص بضمير المتكلم الذى يحكى ما يشاهده ويفتقر الى القدرة على النفاذ الى ما خلف السطح الذى يراه ٠ فهو بحق ـ راو محدود الرؤية أو الخبرة كسابقيه من الرواة فى روايات الكاتب الأخرى ٠

فالبطل الراوية يحزن لأنه لم يتزوج ، ولكنه لا يأبه كثيرا بعدم اكمال تعليمه ، وقد اختفى ذلك الأمر عن وعيه تماما ٠ بينما كان من الطبيعى أن يقارن وضعه كموظف صغير ، بوضع زميلة الذى أكمل دراسته ٠ وقد أفاد نجيب محفوظ من تلك المشاعر الطبيعية ، واتخذها أداه لتعميق مشاعر شخصية حسين كامل على فى بداية ونهاية ، كما فعل نفس الشىء مع أحمد عاكف فى رواية خان الخليلى » ٠

ولا توصف الشخصيات بالتفصيل وانما يركز المؤلف على أبرز الصفات فى أغلب الأحيان ، وحينئذ تلصق بها صفة تتكرر دائما : فبكر افندى يوصف بأنه طويل عملاق جهورى الصوت ويتكرر هذا الوصف له (٤) ٠ كما يوصف

---

(٣) المرجع السابق ص ١٥٨

(٤) المرجع السابق ص ٢٨ ، ٤٤

فيلسوف الحانة التى كان يغشاها أبو بطل الرواية بأنه يجلس كالوسادة المثنية (٥) • كما توصف فاطمة هانم أم زينب بأنها « •• تبكى بغزارة بعين غير سليمة الأهداب لا تخلو من الكحل » (٦) ، ثم يتحدث عن الكحل مرة أخرى (٧) ، ولكنه يطيل الوصف نسبيا عندما يتحدث عن الست جليلة فى لقائها مع فؤاد كان يقول : « •• فانفجرت تضحك ، واحتقن وجهها فصار فى لون القرمز • وكان هناك جزء من كتفها يبدو ناصعا عند سفح العنق •• يبدو من فتحة الصدر العريضة • وشعرها الأسود كان شبه مغسول » (٨) •

ويمهد المؤلف لتطور العلاقة بينهما الى تنتهى باتخاذه منها عشيقة له ، ولكنها ترفض استمرار العلاقة بينهما من أجل ولديها ، وتتوب الى الله ، وتذهب الى الحج • مقاومة عواطفها نحو الشاب • وقد يأتى وصفه لبعض الشخصيات مضحكا كقوله عن سميره : « •• وسميرة تتعلم وتتبشر بمستقبل فى كل مرافقها الحيوية » •• وقد يبالغ وهو يصف جوع أحد زملاء البطل فى المدرسة ، متحدثا عن أن أمه وأباه أفهموه أن اقراض الجائعين من زملائه مسألة مصلحة ، وأنه ليس مسئولا عن ذلك : يقول : « •• أفهمونى أنها مسألة مصالح • ولست أنسى يوم انزوى بى أحدهم فى الفسحة الأولى أصفر لوجه ، متشقق الشفة ، منتن الفم ، وطلب منى أن أقرضه شلنا » (٩) •

ويكون للصنعة البديعية أثرها على أسلوب المؤلف،فهو ينطق شخصيات أحيانا كثيرة بلغة غريبة تقول زينب لفؤاد : « وها نحن أولاء فى حيص بيص » • أو تصويره لحلم رأته أم البطل بعد أن ترجم ذلك الحلم الى اللغة الفصحى : « •• ومنذ ليلتين اثنتين رأت أن عينها رمداء وأنها تحس ألما ، وأنها تشد عليها عصابة غير نظيفة • فلما جلست تتأوه سمعت هاتفا يقول لها من حيث لا تراه • نظفى العصابة تسلم العين • ان منديلك ملوث » (١٠) •

---

(٥) المرجع نفسه ص ٣٤ ، ٣٩

(٦) ، (٧) المرجع نفسه ص ٧٦ ، ٩٨ •

(٨) المرجع نفسه ص ١٧٢

(٩) المرجع نفسه ص ٥١

(١٠) المرجع نفسه ص ١٠

ويصف أم فؤاد بعد أن وضعت : « ٠٠ والأم فى الفراش راقدة على ظهرها ٠٠ بياض وجهها أقرب الى بياض الثوب ٠ وصدرها مشحوب بالدر شأن كل منهل متفجر ٠ وعلى شفتها ابتسامة رثاء وخوف وابتهال » (١١) ٠

ويكون البطل « فؤاد » نموذجا لأبطال الكاتب الذين يحرصون على الفضيلة ، ولا تكون الرذيلة مطلبهم ، ثم هو لا يسمح لهم أن ينغمسوا فيها ومن ثم يحدثنا البطل عن نفسه ، وعن طبيعته ، وتجاربه المحدودة فى الحياة ، وعن طيبته ، وأصدقائه الريفيين ٠ فيقول : « ٠٠ على أننى شاب هادىء ٠ احساساتى شبه داخلية ٠ قد احترق فى الباطن ولا يرى على وجهى أثر الحريق ٠ والدمعة عزيزة كأنها نابعة من الجلمود ٠٠ وحتى هذه السن لم أمارس الحياة ممارسة واقعية بل كنت كأننى أقرأ عنها فى كتاب ولم تعد فرصة اتصالى بالناس سانحة كما كانت ، من قبل ، أيام أبى الزاهية وانتعاشه المالى ٠ ولم يكن لى فى المدرسة أصدقاء من أندادى ٠

كان هناك قلة من أبناء الفلاحين النازحين الى المدينة لأجل التعليم ٠ يقيمون وحدهم وأهلهم فى القرى ولا ينعشونهم الا بالفطير والخبز من حين الى حين ٠ ومن بين هؤلاء الطيبين كان معظم من يعاشرنى » (١٢) ٠

والطبيعة قد توظف لأداء غرض فنى كأن تكون تعبيرا عن تمرد البطل على الدور الذى وضعته أمه فيه كعائل لأسرته دون أن يكون له الحق فى الزواج ٠ ومن ثم عندما يكفهر الجو يكون نذيرا بموقف عاصف بينه وبين أمه (١٣) ٠ كما قد تكون ليالى الشتاء العاصفة نذيرا بحدث هام وهو موت الأب يقول الكاتب مصورا الطبيعة فى تلك الليلة : « ٠٠ وفى احدى ليالى الشتاء والريح تهدر فى الجبل وتلوى أغصان الأشجار بين كفيها كأنها غدائر شعر ٠ اسلم روحة فى صمت كأنه نوم ٠ وأقسمت أمى أنها رأت روعة ملائكية بيضاء ترفرف على فراشه وأعلنت أنها تعرف ماضيه لكنها تعرف أيضا ماذا رأت !! وقبل أن ينبثق صوتها بالصراخ ليلة مات كان الكلب

---

(١١) المرجع نفسه ص ١٠

(١٢) المرجع نفسه ص ٥٠

(١٣) المرجع نفسه ص ٨٧

يعوى تحت شجرة الخروع • والقطار الأخير القادم من العاصمة يمط صفيره على أبواب المحطة ، ويزفر •• قبل أن يتوقف » (١٤) • وعندما توشك أم البطل على الموت يمهد المؤلف لوقوعه بانكسار غصن الشجرة العتيقة الموجودة فى حديقة البيت : « •• وانقصف فى هذه اللحظة غصن الشجرة العجوز القائمة فى ركن الحديقة فعبرت قرقعته عن معنى (الانفصال) فنظرت الى أمى وهى تبتسم لكنها لم تتكلم » (١٥) •

كما تعبر الطبيعة عن شعور البطل بالوحدة وهو يقضى أول لياليه وحيداً فى منزله بعد وفاة أمه « وفى الليلة الأولى من ليالى وحدتى ظلت الأشجار تحف طول الليل والهواء يئن ، والكلب ينبح » (١٦) • وقد لا تعبر الطبيعة عن شىء من ذلك •

قلنا من قبل ان المؤلف لم يكن يدرك بوضوح ما يجرى حوله من تغير اجتماعى حتى بعد يوليو ١٩٥٢ اذا قارناه بغيره من الكتاب فنجيب محفوظ مثلا ينشر روايته بداية ونهاية سنة ١٩٤٩ ويكون فيها كما ستوضح ذلك أكثر وعيا بطبيعة المجتمع وم ايجرى فيه من صراعات اقتصادية وسياسية واجتماعية • فليس ما يعانيه الناس من صنع القدر ، وانما لأسباب أخرى تعبر عنها الشخصيات ويلخصها اسم الفساد الاجتماعى • ويصدر كتاب آخرون روايات أخرى تعبر عما جد فى المجتمع من أفكار ورغبة فى التغيير بعد ثورة ١٩٥٢ • فتنشر « الأرض » مسلسلة فى ١٩٥٣ ، وفى كتاب ١٩٥٤ كما تنشر رواية الفــلاح ١٩٥٧ وهما للكاتب عبد الرحمن الشرقاوى ، كما تظهر الحرام ١٩٥٨ • والكتاب فى تلك الروايات يريدون أن يصوروا معاناة الكادحين مدركين أسباب تلك المعاناة ، محاولين ابراز مشاكلهم • أما عبد الحليم عبد الله فان شخصياته يحكم القدر سلوكها وتصرفاتها ، بل ويخط مصائرها ، فالبطل فى رواية من « أجل ولدى » يتوقف عن استكمال تعليمه ليعول أسرته ويستسلم لمصيره حتى النهاية بلا تمرد حقيقى وبلا وعى لما يجرى حوله • فهو رجل طيب يؤمن بالفضيلة وان كان قد يرتكب الرذيلة

---

(١٤) المرجع نفسه ص ٤٧

(١٥) المرجع نفسه ص ٢٤٢

(١٦) المرجع نفسه ص ٢٤٨

دون أن يفكر فى ذلك جديا • ولو قارنناه بحسين كامل على الذى يختصر تعليمه مثله ـ فى رواية بداية ونهاية لنجيب محفوظ ـ ويعول أسرته فاننا سنجد أن حسين ، يكون أكثر وعيا بواقعه ، فهو مثلا يعلم أن قوة أكبر منهم جميعا تسيطر على مصائر الناس ، وهو يثور ويقارن بين حظه وحظ الأغنياء الذين لا يعيش أبناؤهم فى فقر بعد موتهم ، كما أنه يحب ويوشك أن يتزوج فى طنطا التى كان يعمل بها لولا أن أمه تحول بينه وبين ذلك ثم هو ـ يعلن أن أخاه حسنين سر لأنه • قام بالعمل ليعول الأسرة بينما هو يكمل دراسته فى كلية الحربية ، ولكن نجيب محفوظ يجعل من حسين وجها آخر لأخيه حسنين الطموح الوصولى الأنانى الذى يريد أن يبلغ مطمحه بالانسلاخ من طبقته بمصاهرة الطبقة العليا ، دون أن يعبا بما يلقاه أفراد تلك الأسرة من متاعب فى سبيل ذلك بل ان كل أفراد الأسرة يؤدون أدوارا تعبر عن مأساة الأسرة التى أراد نجيب محفوظ أن ينبه اليها باعتبارها تمثل أسرا كثيرة فى المجتمع تعيش بلا عائل وتواجه شظف العيش بعد موت ربها • ومن ثم فان تلك المأساة لا تحل بكفاح الشخصيات ، بل انها تتضخم بانهيار ذلك الكفاح فى النهاية •

أما بطل محمد عبد الحليم عبد الله فقد كافح وبلغ شاطىء النجاة فى النهاية لأن المؤلف يمجد الكفاح ، ويؤمن بأن مصير الانسان يخطه القدر ، ولا مفر للانسان من مصيره • ومن هنا كما قلنا كانت الرؤية الفنية محدودة فى رواية محمد عبد الحليم عبد الله • بالانشغال بالحب والزواج • مما يجعل مشكلته مفتعلة الى حد كبير • فى حين تكون لكل شخصية من شخصيات أسرة احمد كامل على فى رواية بداية ونهاية مشكلتها التى لا تنفصل عن مشكلة الأسرة ككل • فنفسيه لا تتزوج لأنها ليست متعلمه ، ولا جميلة ، وتسقط لأنها أحبت ابن البقال باعتباره زوجا ملائما لها ، وتحترف الدعاره بعد أن لم تجد من الانحدار بدا • بل ان حسين الابن الأكبر للأسرة يعمل بلطجيا دون أن ينسى أسرته أبدا • وتكاد الأم تكون صمام الأمن للأسرة بكاملها ، وتكون علاقة الأسـرة بغيرها محسوبة بدقة اما لتصوير طبيعة العلاقا تبين الأسرة المصرية أو لبيان الهوة الهائلة التى تفصل بينها • مثل العلاقة التى يريد حسنين أن يقيمها بين أسرته وأسرة أحمد بك يسرى• والذى يريد أن يتخذ من ابنته مطية للطبقة العليا •

المرحلة الثانية عند محمد عبد الحليم عبدالله

تبدأ هذه المرحلة برواية « سكون العاصفة » (١٧) ، وتمثل تجربة سبق للمؤلف أن عبر عنها فى احدى قصصه القصيرة ، وهى « أجنحة الحب » فى مجموعته القصصية الأولى « أشياء للذكرى » • وتهمنى الاشارة الى هذه القصة ، لأنها تكشف عن ثبات الرؤية الفنية لدى الكاتب • فالشخصيات الأربعة الموجودة بها ، موجودة كذلك برواية « سكون العاصفة » ، وبنفس السمات التى اتسمت بها ، بل ان وقائع بعينها تتكرر ، كما تتكرر صور لغوية تكشف عن هذه الوقائع أيضا • فموضوع القصة القصيرة ، يصور معاناة أب فى سبيل الحفاظ على ابنة وابنه بعد وفاة أمهما ، وتظل الشخصيات الاربع فى الرواية ، تتسم بما كانت تتسم به فى القصة القصيرة ، الا أن المؤلف يضيف الى الرواية شخصيات أخرى وأحداثا أخرى بطبيعة الحال •

ويبدو أن المؤلف رأى أن يجرب الكتابة بضمير الغائب ، وأن يتوسع فى هذا الشكل ، وأن يعرض بشىء من الجرأة والصراحة غير المطلقة الى أمور لم يكن يقدمها الا رمزا واشارة • لكن هذا لا يعنى أن رؤيته الفنية للناس والواقع قد تغيرت سواء من حيث الشكل أو المضمون • فسواء قص بضمير الغائب أو المتكلم ، فان هذا لن يغير من طبيعة رؤيته الفنية لقد سبق أن أشرنا الى أنه لم يكن يعى طبيعة ما يجرى فى المجتمع ، وأنه وقد شغل نفسه بعاطفة الحب بين المحبين ، لم يتطلع ببصره الى أبعد من مواطىء أقدام أولئك الأشخاص فهو مثلا يصف الفلاحين فى رواية « بعد الغروب » بالنفاق الذى مرنوا عليه ، ولكنه لا يلتفت الى بؤسهم ، فى المسكن والمأكل والملبس • كما يصفهم بذلك مرة أخرى فى رواية « البيت الصامت » • وهو فى هذه الناحية يتخلف عن محمد حسنين هيكل الذى جاء قبله بزمن من طويل •

هو كما قلنا على وفاق مع المجتمع ، بقيمه وتعاليمه ، وان كان يصور

---

(١٧) دكتور شكرى محمد عياد ، تجارب فى الأدب والنقد ص ١٧٦ حيث يقول :
« ••• والذى يجعلنى أميل الى الظن بأن اتجاه عبد الحليم الى أسلوب الغائب فى روايته الجديدة يدل على بدء تطور أصيل وليس مجرد رد على الناقدين ، هو أن موضوع الرواية نفسه ينبىء عن هذه الشاعرية المعقدة » •

المآسى ، فانها مآس لها هدف خلقى ، ولا تعنى أكثر من التنبيه على وجوب أن يقترن الانسان بمن يحب ، أو يفسح الغنى للفقير مكانا حتى يستطيع الحياة ٠

وتمثل رواية « سكون العاصفة » ١٩٦٠ محاولة للتجديد ٠ فالكاتب يستخدم ضمير الغائب فى القص لا ضمير المتكلم ٠ وقد تضخمت الرواية لأن المؤلف استخدمه فى حرية وبغير تحرز ٠ فالرواية لا تقـدم قصة حب واحدة ، وانما تقدم قصتين : الأولى قصة حب وحيد وسوسن بنت عزت بك ، وقصة حب عزت بك وفاطمة وهدان ٠ كما تناول المؤلف أمورا فرعية أخرى كان لها أثرها فى احداث ما أشرنا اليه من تضخم ٠ والمؤلف يتوسع كذلك فى وصف الأماكن والشخصيات ، بحيث يصبح كثير من ذلك الوصف مقصود لذاته ٠ فهو يصف الأماكن كلما رأى الفرصة سانحة ، بل انه قد يصف أشياء تافهة عددا من المرات بلا مبرر كما فعل عندما وصف الكلب « لولو » ست مرات (١٨) ٠

ولم يكن يتبع خطة واضحة فى تصويره للبيئة أو لما يتحرك فوقها من أشخاص ، فهو يوجز فى ذلك أحيانا ويطنب فيه أحيانا أخرى ٠ ومن أمثلة وصفه أو تصويره لمشاعر الشخصيات قوله : « ٠٠ ودخلت نسمة مسائية من الشباك ، وخرجت على كعبها العالى الفتاة التى تعمل على الماكينة فى دار الجمعية فهدأ الجو ، ودخل الخادم البدين ثم انصرف ، ولم تحضر السيدة الرئيسة بعد ، وكانت فاطمة وهدان قد مسحت دمعها وسكتت عن القصة التى كانت تحكيها وزمت شخصيتها على ابتسامة محزونة » (١٩) ٠ وهو وصف مجمل وسريع ٠

وتصور الرواية أساسا حياة أسرة عزت بك التى تتألف من فتى وفتاة ، يرعاهما الأب بعد وفاة أمهم ٠ ويجاهد الأب محاولا أن يحافظ على ابنته من الانحراف ، متجنبا الوعظ المباشر ، فيسوق لها القصص ذات المغزى الخلقى ، تاركا لها أن تستخلص منها الدرس والموعظة ٠ ورغم حرصه على الفتاة وخوفه

---

(١٩) المصدر نفسه ص ٢٧١ ٠

(١٨) الوشاح الابيض ص ١٣٧ ـ ١٤١ ٠

عليها تكون سوية لا يجد عناء فى تربيتها ، أما أخوها فكان من طراز غريب من الشبان يستعصى علاجه ٠

وينجح الكاتب فى اقناع قارئه بشخصية الأب عندما يصوره وقد تعلق بفاطمة وهدان ، التى جاءت تطلب مساعدة الشئون الاجتماعية لفقرها ٠ اذ يضطر الى قطع علاقته بها حتى يتفق سلوكه مع مبادئه ، وحتى لايجنى سلوكه هذا على ابنته ، التى لو قدر لها أن تعلم بتلك العلاقة ، لفقدت المثل الأعلى فى السلوك الذى يجسده ٠ يقول الكاتب عن عزت بك : « ٠٠ كان يتمنى بينه وبين نفسه أن يأخذها بين أحضانه ، انه يحبها على الأقل مثلما تحبه ، لكن هناك اعتبارات أعلى من كل ذلك ، فهو يريد أن يكون صادقا مع نفسه ليكون صادقا مع أبنائه وألا تنفصل عنه نفسه ، كما ينفصل الجرف عن الشاطىء المنخوب ــ حين يكلم أحدهما عن الشرف أو عن الاستقامة » (٢٠) ٠

وتطغى الأحداث الفرعية على الحدث الرئيسى للرواية ، وتكاد تكون قصصا منفصلة ، وتتمثل تلك الخيوط الفرعية فى قصة فاطمة وهدان وعزت بك ، وقصة بكير افندى وزوجته ، وقصة محسن بك ، ونزاعه مع ورثته ، وقصة وحيد وماورثه عن أبيه من تهور ونزق ٠ ويشير الى عدم تماسك الرواية الدكتور شكرى محمد عياد بقوله : « فعنده عدد من العقد الفرعية وعدد من الشخصيات الفرعية ، يوليها عناية كبيرة تكاد توازى عنايته بالأبطال وعقدهم ، مع أنهم بعيدون عن المجرى الأساسى للرواية » (٢١) ٠

ما الذى دفع الكاتب الى تلك الافاضة فى الأحداث والشخصيات ؟ هل هى سهولة القص بهذا الأسلوب الذى يتبع فيه المؤلف أسلوب القص بضمير الغائب ؟ أم يرجع هذا الى محاولته تقليد غيره من الكتاب ؟ انى أرجح هذين السببين وأضيف اليهما النزعة الاخلاقية التى تلعب دورا هاما فى التأثير على بناء تلك الرواية ٠ فالمؤلف ــ كما يتضح من الرواية يرى أن المدنية الحديثة تفسد حياة المواطنين ، اذا لم يأخذوها بحذر فبكير افندى وزوجته يعيشان حياة أسرية غير مستقرة لأن الزوجة تعمل ، وتضحى

---

(٢١) د ٠ شكرى محمد عياد ، تجارب فى الأدب والنقد ص ١٧٨

(٢٠) الوشاح الأبيض ص ٢٧٦

بواجباتها الزوجية فى رعاية أسرتها وزوجها ، وبخاصة وأنها لا تقف عند الحد المعقول من الانطلاق مع تلك الحياة الحديثة · ومن ثم يناقش العلاقة الزوجية القائمة بين الزوجين ، مبينا أن الزوج غير راض عن حياته مع زوجته ، بل ويشك فى سلوكها ، ومع ذلك يوافق على أن تقضى مع المدير الذى تعمل معه عدة أيام خارج بيتها ، لأن المدير لا يستطيع الاستغناء عنها فى حل ولا ترحال ، ويعلن الزوج أنه على أتم استعداد للبقاء فى البيت لخدمة طفله طالما أن زوجته تتقاضى مرتبا أكبر من مرتبه · ويتعمد تصوير الزوج وكأنه لاعب فى سيرك ، كما يصور الزوجة بصورة المرأة اللعوب ولا يكتفى بذلك ، بل يجعل عزت بك يضبطها هى والمدير فى جلسة مريبة بأحد الكازينات ليؤكد فى صراحة انحلال تلك الزوجة · ولا يخفى على فطنة القارىء حديث المؤلف عن ترك الأبناء لرعاية الخدم ، وما ينطوى عليه ذلك من أضرار تلحق بالأبناء (٢٢) ·

ويتدخل المغزى الأخلاقى حتى فى صياغة العبارة التى قد يتفوه به أحد الأشخاص ، فعندما ترى سوسن أخاها شكرى فى علاقة جنسيه مع الخادمة ، تنقل الخبر الى أبيها بأسلوب الكناية ، لأن التلميح هنا يغنى عن التصريح ، فتكنى عن الخادمة « بالأرنب » ، وعن أخيها « بالثعلب » · مما يثير غضب شكرى ، ويحدث بينه وبين أبيه مشادة تدور حول مفهوم الأخلاق المثالية (٢٣) · ويقول الأب لابنه « ·· اننا مخادعون · اننا نغفر للأذكياء والناجحين مالا نغفره لسواهم ، ليس كل الأشياء تتناول عن طريق الفم ياشكرى ·· وحينما شاء الانسان أن يرتقى عن الحيوان مرتبة جديدة زعم أن له حاسة سادسة · وهذه الحاسة ـ التى ليس لها عضو ـ هى أشرف حواس الانسان » (٢٤) ·

كما أن قصة الفتاة البالغة من العمر سبعة عشر عاما ، والتى يرويها الأب لابنته لها هدفان : أن تتخذ منها الفتاة درسا فلا تسقط وأن يأخذه

---

(٢٢) سكون العاصفة ص ٣٥٦

(٢٣) المرجع السابق ص ٨٥

(٢٤) المرجع نفسه ص ٨٥

منها القارىء عظة وعبرة فيفهم ما يدور بخلد أبنائه ويحسن معاملتهم ويراقب سلوكهم (٢٥) • وقد لاحظ الدكتور شكرى عياد اهتمام المؤلف بلا مسوغ بمحسن بك الثرى الذى لاعقب له ، وبالأستاذ بكير وزوجته • وكذلك بكامل صديق شكرى بن عزت بك • وقد سبق أن أشرنا الى المغزى من سوق قصة بكير وزوجته ، وهو أيضا نفس السبب الذى يسوق من أجله قصة محسن بك ، وهو تفاهمه مع ورثته فى نهاية الأمر • أما صديق شكرى فهو يمثل النقيض للشاب فشكرى يظل يفهم من الحياة جانبها المادى فحسب، فى حين كان صالح ينوء بمسئولية فادحة هى رعايته لأخواته ، وحماية نفسه من رصاص خصومه الذين قتلوا أباه ويودون قتله حتى لا يثأر له • وتكون نرجس « البغى » أفضل من البطل لأنها ربما تكون قد تزوجت وهجرت مسكنها القديم ، ولأن سقوطها يرجع الى الحاجة ، فهى تعول أسرتها •

وهكذا ـ وبدافع أخلاقى (٢٦) ـ يلقى شكرى جزاء ماديته مرضا خبيثا مميتا ، والموت أمر محتمل فى كل لحظة ولكل انسان ، ولكن ما يؤاخذ عليه المؤلف أنه حركه فى الرواية فى اطار أعده له سلفا ، ويتضح هذا من تعريفه له بأنه « شهوة وشهية » • ويحركه فى اطار ذلك التعريف العجيب حتى يموت • ولذا فنحن لا نقتنع بتصرفاته • ولانكاد نجد سببا مقنعا لسوء التفاهم العضال الذى أفسد علاقته بوالده وأخته معا • فمن الغريب أن ذلك الأب الذكى الذى يحاول أن يرشد ابنته الى الطريق الصحيح فى لباقه ، وبأسلوب يخلو من الوعظ المباشر ، كان يأخذ من ابنه موقف الواعظ ويناقشه فى حدلقة خالية من الكياسة واللباقة •

بل والأدهى من ذلك أنه وضع بين الشاب وأبيه حائلا غير طبيعى ، فمهما كان الابن غريب الأطوار الا أن موقفه من أب عطوف كعزت بك ، ربما يتغير مع مرور الزمن ، فليست هناك حتمية لأن يتصرف حيال أبيه بهذه الكيفية • ثم ألم يكن شكرى يستطيع أن يهجر المرأة التى صحبها الى الريف؟ أكان لابد أن يموت ؟ والحق أن موته يأتى جزاء وفاقا على ما قدمت

---

(٢٥) انظر سكون العاصفة ص ٨٧ ـ ٩٤ حيث تجد قصتها كاملة •

(٢٦) انظر المرجع السابق ص ١٨٢ ـ ١٨٦ ، والحديث عن المروح بين شكرى ووحيد ، وتدخل الأب لتأكيد وجود المروح معضدا رأى وحيد ، ومخالفا رأى شكرى •

يداه • والغريب أن شكرى كانت تتسم آراؤه فى بعض الأحيان بالحصافة ، والبصر بأمور الحياة ، وهو ما يناقض مسلكه بتجاه أخته وأبيه •

وتكون الشخصيات النسائية فاضلة أو فاسقة ، وتمثل المرأة الفاضلة سوسن بنت عزت بك ، وفاطمة وهدان ، وتمثل الفئة الثانية زوجة بكير افندى ، ويكون زوجها ضعيف الشخصية مغلوبا على أمره لامبدأ له ، فلا يغضب لكرامته أو شرفه • والزوجة المثالية فى رأى الكاتب يجب أن تلزم بيتها كما فعلت سوسن اذ تتفرغ لبيتها بعد الزواج ، وبعد حصولها على الثانوية العامة ، وهو قسط كاف من الثقافة ، وتكون حياتها الزوجية رغدا ، كما لاحظ ذلك أبوها •

وأكرر القول بأن الدفاع عن الأخلاق ليس معيبا فى ذاته ، فالأدب يدافع عن أخلاقيات يعتقد الكاتب فى صوابها ، ولكن يعاب على الكاتب أن يجعل الشخصية تبدو ــ فى اطار مفهومه الأخلاقى ــ دمى تتحرك يصرف النظر عما يحيط بها من ظروف ، ويصرف النظر عن الطبيعة البشرية ، مما يجعل القارىء لايتقبلها ، لعدم اقتناعه بأن الناس فى ظروف مماثلة لا يسلكون نفس السلوك •

وربما كانت حياة المومس نرجس أقرب الى الصدق ، والاتساق مع الطبيعة البشرية ، من جميع شخصيات الرواية وذلك بالرغم من أن المغزى الأخلاقى كان هو الدافع لسوق قصتها • ولا يتفلسف راوى الرواية ، ولكن تتفلسف الشخصيات ، مثل شكرى طالب الفلسفة • حقا اختفت الحكمة التى كان يسوقها الراوى فى الروايات السابقة ، ولكن حل محلها تفلسف الشخصيات ، وتتسم تلك الفلسفة بالحذلقة والبرود (٢٧) • ومن أمثلة تلك الحذلقة مناقشة وحيد وشكرى حول ماهية الروح : يقول وحيد :

« •• لكنى على كل حال أومن بالروح ، هل تؤمن بها يا أستاذ شكرى ؟! فالتفت شكرى نحو أبيه الذى بدت على فمه ابتسامة مترقبة ثم قال :

ــ أنا أومن بها على أنها مجرد اشعات تطلقها الجوارح •• الجوارح المحسوسة التى تؤلف أجسامنا ، فمن بريق العينين ، ورنة الصوت ، ولون

---

(٢٧) سكون العاصفة ص ٢٩٨ ، ٢٧١ •

الشعر والنسب التى فرضت على جسم ما ، ولون البشرة ، وربما ترتيب الأسنان ... من كل هذا يأتى الشعاع الذى سميناه الروح .. أما ما بعد ذلك ، فأنا متنازل عنه لك يا أستاذ وحيد .

ـ ألم تحس شيئا ما قبل أن تدركه احدى جوارحك ؟ » (٢٨) .

وفى هذه الرواية يستقل البطل الى حد كبير عن صديقه ، ولكنه يتأثر به بصورة ما ، لأن البطل يتعلق به ، ولذا يسرد المؤلف قصة ذلك الصديق ، برغم دوره الثانوى الذى لا يتطلب ذلك .

وقد انهى المؤلف روايته نهاية تحقق القيم الأخلاقية التى يريدها . اذ تتزوج ابنة عزت بك ، فى حين يموت ولده الكافر الملحد الفاسق . بينما يتزوج وحيد بسوسن ، بعد أن وجدها تمثل المحور الذى كان يبحث عنه ، على حد قوله . ويتراضى محسن بك مع ورثته حتى يجد من يبكيه عند وفاته ، لأنه لم يكن له عقب . وتتزوج فاطمة وهدان بعد أن تخلى عنهـا عزت بك .

وتتحسن الأحوال المالية للأستاذ بكير وزوجته سوسن ، وينتقلان الى مسكن آخر . وتترك المومس نرجس البغاء وتتزوج . ولا نعرف عن ألفت هانم شيئا بعد أن هجرت عشيقها شكرى . فأودت بحياته سوى أنها تبحث عن الايمان .

والحرص على تلك النهايات نابع من الهدف الأخلاقى للرواية وقد أدى تأثير ذلك الدافع الخلقى الى نمطية الشخصيات فى الغالب ، ومن الشخصيات التى أصابها قدر من التطور « عزت بك » وبخاصة وقد أحب فاطمة وهدان ، وثار فى نفسه الصراع بين الرغبة فيها ، والحرج من ابنه وابنته . ومع ذلك تظل علاقته بابنه علاقة غير طبيعية .

***

وتروى رواية الجنة العذراء بضمير الغائب كذلك . ويتلخص موضوعها فى تصوير الصراع بين حموده وأخيه الأصغر رضا من أجل ميراثهما من ثروة أبيهما التى كانت أراض زراعية . فالأخ الأكبر حموده يرغب فى الاستئثار

---

(٢٨) المصدر نفسه ص ١٨٣ لترى الحوار كاملا وبالتفصيل .

بها ، ويخطط لتحقيق هدفه وأبوه حى يرزق • فيلفق تهمة باطلة لامرأة أبيه ، وهى تهمة الافك ، حتى يطردها وابنها من القرية ، حيث يذهبان الى القاهرة ليعولهما شقيقها « عزوز » ويتزوج حموده فتاة تنتمى الى أسرة ذات نفوذ فى قرية مجاورة ثم يطلقها ، فيشتد النزاع بينه وبين أصهاره ، فيقتلونه • وهكذا تعود ثروة الأب « الحاج ماضى » الى ابنه المطرود وأمه •

ويقل احتفال المؤلف بالصياغة اللغوية ، عما عهدنا فى رواياته السابقة، فيتخفف من الاستعارات والتشبيهات ، بل ويستخدم العامية فى الحوار أحيانا ، ولكنه يستخدم اللغة الفصحى فى السرد والتحليل • وقد اختفت الحكمة ، التى كانت ترد بالأسلوب المباشر المعهود ، واقتربت الرواية من تحقيق شكل معقول لها •

ولا يزال المغزى الأخلاقى يتحكم فى بناء الرواية ، فيورد المؤلف قصصا تصور الخيانة ، وبخاصة الخيانة الزوجية التى يعاقب مقترفها على اقترافها فى نهاية الأمر • فالخال عزوز يتخذ من زوجة معلمه خليله له ، ثم زوجة بعد وفاة زوجها قتيلا ، ويفعل صبيه الشىء نفسه مع زوجته ، ويتزوج بها بعد أن يسجن •

ويتضح المغزى الخلقى من الجزاء العادل الذى يلقاه « حمودة » الطامع فى ثروة أبيه ، والذى رمى زوجة أبيه بالفاحشة زورا ليتمكن من حرمان أخيه الأصغر من الميراث • اذ يقتله أصهاره الذين اتخذ منهم عونا له فى إغتصاب حق أخيه • فتعود للأخ المسالم كله حقوقه ، بل كل ثروة أبيه •

وتبدو الرواية غير متماسكة البناء ، وذلك لاهتمام المؤلف بأحداث جانبية ، مثل قصة حسن صديق رضا ، وقصة المحامى الذى كان يدافع عن حقوق الأخ الأصغر • وقصة جيران زوجة الحاج ماضى المطرودة وابنها فى القاهرة ، وبخاصة الجزء الأخير منها الذى يصور خطف ابنة تلك الأسرة على يد جنود الاحتلال ، وقيام رضا وأبى الفتاة باغتيال جنود الاحتلال انتقاما منهم •

وتلعب الفتاة القاهرية التى أحبها رضا دور الصديق الذى التقينا به فى الروايات السابقة ، وان كان دورها يعد ضئيلا بالقياس الى دوره • ومن ثم تدفعه للمطالبة بميراثه من أبيه ، ويستجيب لها •

وكان لريفية المؤلف أثرها فى أدبه ، فقد ظل رومانسيا ، ولكن فى نطاق العرف والقيم الريفية . وظلت رؤيته لشخصياته تخضع للمثالية مما يجعلها تبدو غير مقنعة ، أو واقعيــة أو مألوفه . وتظل شخصيات غير نامية ، قريبة الغور . فهو يلمس الشخصية من الخارج لمسا رفيقا ، وكان عليه اذا أراد لها أن تكون حية مؤثرة أن يراعى جانبين أولهما أن تكون تلك الشخصيات مألوفة للقــارىء ، أو تبدو له كذلك بحيث يرى فيهــا صورا لأناس التقى بهم فى واقع حياته . وثانيهما : أن يكون لهذه الشخصيات خصوصية تجعلها متفردة ولها طبيعة خاصة . ويحدثنا عن هذين الجانبين الدكتور محمد غنيمى هلال قائلا : « تقوم العلاقات بين الشخصيات فى العمل الفنى كما تقوم فى الحياة ، وبها تتحدد معانى الوجود والناس لدى تلك الشخصيات الأدبية المعروضة فى العمل الفنى ، فى أنواع سلوكهــا الخاص تجاه ذلك الموقف ، وكل قوة من هذه القوى الوظيفية المتصارعة يتمثل فيها موقف كل شخص على حده ، وهذا هو الموقف الخاص الذى لا يمكن فهمه حقا الا فى ضوء الموقف العام » (٢٩) .

وشخصياته الريفية غالبا مصابة بعقدة نفسية ، ان صح هذا التعبير أو تغلب عليها عاطفة مسرفة ، مما يجعلها عاجزة عن التكيف مع من حولها ، أو غير قادرة على التصرف السليم ، أو امتلاك زمام المبادرة ، ومن ثم تحتاج الى من يأخذ بيدها على الدوام . وما تكاد تعثر عليه حتى تلتصق به التصاقا شديدا .

ولم تكن أحداث الرواية من الغنى والثراء بحيث تشد القارىء اليها ، وتبدو مشاكل الشخصيات بعيدة كل البعد عن مشاكل الحياة الحقة وتغلب السذاجة عليها ، لسذاجة الشخصيات وضحالتها .

***

ومن الروايات التى تروى بضمير الغائب كذلك رواية « البيت الصامت » ١٩٦٦ . وموضوعها يمثل سقوط احدى الفتيات وهى فى الثانية عشرة من عمرها ، حيث عاشرها رغما عنها أو بعبارة أخرى اغتصبها أحد عمال البناء المراهقين . وتنسى الحادث بمرور الزمن ، ولكن ذلك الحادث يفرض نفسه عليها من جديد قبيل زفافها ، وتنتابها الأحزان والمخاوف . ويكتشف زوجها

---

(٢٩) محمد غنيمى هلال ، المواقف الادبية ص ٢٦

أنها ليست عذراء ، ويستوضحها السبب ، فتزعم له أن ثعبانا ظهر لها فجأة فى غرفة علوية فى بيتهم ، فقفزت من عل لتنجو بنفسها ففقدت عذريتها • ولا يصدق زوجها تلك المزاعم بطبيعة الحال ، ولاينى عن اهانتها •

واذا كان موضوع العذرية له أهميته البالغة فى الريف وفى المدينة على حد سواء ، فان الأم توصى ابنتها بكسب الوقت حتى لاتنالها الألسنة بالقيل والقال • وتضطر الفتاة الى البحث عن الحنان الذى افتقدته فى زوجها عند ابن جارها السجان • ويعاشرها الشاب فى أحد الفنادق ، وعندما يعلم أنها حامل ، تنتابه المخاوف ، ظنا منه أنه أبو الجنين الذى تحمله فى أحشائها ، ويتنصل من الزواج بها ، فتحاول أن تجهض نفسها ، حتى تتخلص من سلطان الرجال فتموت على أثر ذلك •

ويلاحظ القارىء أن الرواية ، تدافع عن الفتاة ، باعتبارها غير مسئولة عما وقع لها فى صباها الباكر ، وهو تحول فى رؤيته الأخلاقية أو الفنية • ومن ثم بتصيد الأدلة أو الحكايات التى تبرىء ساحة الفتاة : بذكر قصة حبيبة الصياد التى كان زوجها شاهد عيان لها ، والتى تتلخص فى أن أخا الفتاة يلقى بها تحت عجلات القطار ، لأن زوجها زعم أنها ليست عذراء فى حين تكون الفتاة عذراء فعلا • وتموت ظلما وعدوانا •

ويدفع الكاتب بطلته الى أن تصبح عشيقة لسمير ابن السجان ، ليبرهن على أن المرأة ان فقدت حنان زوجها بحثت عنه لدى من يقدم لها ذلك الحنان • ولذا تخون زوجها • ويحرص – بدافع أخلاقى – على أن يجعل الشاب يرفض الاقتران بها ، لأنها مهما كانت الدوافع والأسباب التى دفعتها الى ذلك ، زوجة خائنة •

وكانت رغبة الكاتب فى تبرئة ساحة الفتاة التى ترتكب الفاحشة على غير رغبة منها ، مسئولة عما أصاب الرواية من أضرار فى البناء • فأحداثها لاتخلو من الافتعال ، وشخصياتها يساء اختيارها • فعندما نتأمل تصويره للسجان وزوجته ، نجده يصف الرجل بالغلظة والجفاء والارتشاء ، بل الثراء على حساب المساجين • دون أن يكون لهذه الأوصاف وظيفة فنية فى الرواية •

كما يسم زوج « درية » بطلة الرواية ، بالقسوة والفظاظة ، أيضا ، فهو يسىء معاملة زوجته ، ولكنه لا يكف عن معاشرتها جنسيا ، مستمتعا

كل الاستماع بذلك ، فى حين لا تشعر هى بأية متعة • ويمضى فى الحاق كثير من الصفات المنفرة اليه ، بالرغم من أن مأساته لاتقل عن مأساتها عنفا ، فهو فى الواقع صاحب المأساة • ومن ثم فانه يصمه بالارتشاء متخذا من حسن شيحه شاهدا على ذلك ، فهو يسرق الركاب ، ويتقاضى منهم الرشوة ، حتى يركبوا القطار مجانا ، كما أنه عرف كثيرا من النساء قبل أن يتزوج ، فقد رآه حسن شيحه أيضا يصحب احدى الفتيات الى مسكنه بعد أن غادرت زوجته درية المنزل • كل هذا ليقول انه اذا كانت زوجته موصومة بالسقوط فهو موصوم بالفاحشة وبغيرها من النقائص ، من ثم يعجز عن تصوير مشاعره بصدق ، عندما اكتشف أن المرأة التى كان يراها مثال للطهر والنقاء انسانة ملوثة الشرف • وقد صوره من الخارج ، مكتفيا ، بالحديث عن شعره المهوش وعينيه الحمراوين ، وافراطه فى التدخين ، وسهره•

وقد ظفر السجان وزوجته باهتمام لاتتطلبه أحداث الرواية ، ويقدم لنا «حسن شيحه » ، أعور أعرج ينم مظهره عن مخبره ، فجسمه المشوه ، يكشف عن خلقه الوضيع ، بل انه لا يرغب فى أن يحيا حياة شريفة • ولا يكتفى المؤلف بأن يجعله قوادا ، بل يقيم بينه وبين بقرة « آل زين » علاقة جنسية ، يكتشفونها فيضربونه ويطردونه من خدمتهم ، وربمـــا يظن المؤلف أنه بهذا الأسلوب فى تقديم الشخصية يقدم لنا شخصية واقعية• ولكن هناك فرق بين الواقعية والاسفاف •

والغريب أن يقيم المؤلف بين « درية » بطلة الرواية وبين ذلك الرجل علاقة حب ، فعندما يلتقى بها أمام المسجد الأحمدى بطنطا وتصافحه وتمضى فى طريقها ، تستدير فتجدة يشم يده ، وهم نفس ما تفعله بعد أن تصافحة : « •• أحست وهى تسلم أنه أودع فى كفها شيئا قبل أن ينصرف ، شيئا لايرى فى الكف ••• قطعة من النفس يراها الكف نفسه ، ثم شمت كفها بعد أن سارت فى نفس اللخطة التى كان هو يشم فيها كفه » (٣٠) •

ويطلق الكاتب أحكاما عامة وهو يتحدث عن حسن شيحه مثل قوله : « •• فقير تمرد على الفقر ، وان لم يبد عليه ذلك ، تمرد على الفقر بالنفاق شأن القرويين » (٣١) • وتبدو على لغة الشخصيات حذلقة وتفاصح لايتفقان

---

(٣٠) البيت الصامت ص ١٦٣

(٣١) المرجع السابق ص ١٠١

ومستواها الثقافى أو الفكرى ٠ والأمثلة كثيرة بالرواية ونقتطع أحدها لبيان ذلك : تقول درية لزوجها سلامه ، مدعيـة كذبا أنه ناداها وهو نائم : « على كل حال سمعت اسمى يخرج من حجرتك آ ٠٠ (ثم بتذلل يلين القلب) لاتحزن فنحن نحلم بالأشياء التى نكرهها أو نخافها ٠٠ (وبعد صمت) أليس جائزا أن تكون قد حكمت بقتلى » (٣٢) ٠ ثم يقول الكاتب عن درية : « ٠٠ كانت تريد أن تعرف : هل كانت حواء حقيقة مخلوقة بدون هذا الشىء الذى نقصها ؟ ٠ واذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يرثها بناتها ؟ وسرحت تفكر ٠ هل ابتهل أحد أبناء آدم الى الله بعد أن تعددوا أن يضع خاتمه على الفتاة ففعل ؟ ولماذا قبل الله دعوته ؟ هل لأنه يعلم أنهن بدون هذا الخاتم سيكن أوراقا غير رسمية » (٣٣) ٠

ويلجأ المؤلف الى هذا الأسلوب حتى يبتعد عن التصريح بما يشتم منه رائحة الجنس ٠ فيلجأ الى الكناية فى تلك المواقف أكثر من غيرها ، فمثلا بدلا من أن تقول انها سمعت زوجها ينادى تقوم بوضع تفسير فرويدى للحلم كما يعرفه الكاتب لا الفتاة المصرية المحدودة الثقافة ، والتى ما ان تسمع حلما حتى تقول : خيرا ، ان شاء الله » ٠ ويميل المؤلف الى تقرير الحقائق ، بل ويسبقها أحيانا ، وهو أمر مرفوض فى الرواية :

وفى بداية الرواية نلتقى بالبطلة فى اليوم السابق على الزفاف والمؤلف يصور مشاعر الخوف التى تنتابها ، دون أن يفصح لنا عن أسباب هـذا الخوف ، الا بعد أن يقطع شوطا غير قصير من أحداث الرواية ٠ فالبطلة تتذكر أسباب خوفها على أنها ذكرى طواها النسيان وتذكرها فى اختصار شديد ، ولا نعرف سر مخاوفها يقينا الا بعد زواجها ، واكتشاف زوجهـا أنها غير عذراء ، ويعمل هذا الاخفاء على تشويق القارىء ٠ وتمضى الأحداث مصورة العلاقة بينها وبين زوجها ثم بينها وبين سمير ابن جارها السجان ، وحسن شيحة حتى يتوفاها الله ٠ وفى أثناء ذلك الخط الرئيسى يهتم المؤلف اهتماما لا مبرر له فنيا بأسرة السجان ، وطبيعة العلاقة التى تربط بينه وبين زوجته وابنه ٠ كما تكون قصة حبيبة الصياد ، مقحمة على أحداث الرواية.

---

(٣٢) المصدر نفسه ص ٤٨

(٣٣) المصدر نفسه ص ٨٨

ولم يكن هناك داع للوصف التفصيلى لتلك القصة ، نعم هو يريد بهذه القصة أن يصور مشاعر بطلته درية وأن يدفعها الى نوع من الايجابية ، اذ تأخذ فى المقارنة بين ظروفها ، وظروف الفتاة الأخرى ، وتقتنع بأنها بالقياس بها تعد محظوظة ، ولكن التزيد واضح ، وقد كانت تكفى اشارات لهذا الموضوع • وتعبر الرواية عن قضيتها الأخلاقيه وهى : « ما يهم هو أن يعرف سلامة أنه ليس كل فتاة تحمل كلمة السر تستحق الدخول • وليس كل فتاة لا تحملها تستحق الطرد » (٢٤) •

***

محاولة التجديد

للزمن بقية أبريل ١٩٦٨

تتخذ الرواية من موضوع النضال السياسى ضد الاقطاع الذى يتحكم فى الريفيين ، وهو موضوع لم يسبق أن التفت المؤلف اليه من قبل ، ويتصل به موضوعات ثانوية مثل ثورة المرأة على قيودها ، وتصوير الفساد السياسى المتمثل فى الأحزاب قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ ، والصحافة الناطقة بلسان هذه الأحزاب • وكتابة المؤلف فى هذا الموضوع تعنى أنه أصبح على غير وفاق مع مجتمعه ، وأكثر وعيا بمفاسده وقضايا الطبقة الكادحة به •

وقد كان بطل هذا الرواية صورة من أبطال مكافحين سبقوه فى مضمار الكفاح الا أن كفاحه يمثل لونا جديدا ، وأنه لا ينتهى الى الغاية التى كان ينشدها • وهو ـ كما كان دائما أسلافه فى روايات أخرى للكاتب ـ فى حاجة الى صديق يتعلق به عاطفيا ، ويلجأ اليه عندما يحزبه الأمر ليستعين برأيه • وهذا الصديق نفسه صورة متطورة عن الصديق القديم لأبطال روايات المؤلفة •

ومع أن المؤلف ترك القص بضمير المتكلم ، فانه لم يتخلص تماما من اهدار كيان شخصياته الثانوية ، ان صح هذا التعبير • فنحن لا نرى

---

(٢٤) المصدر نفسه ص ٢٢٦

ما يدور بداخلها من أحلام أو صراع أو ألم • بل نراها من الخارج ، ولعل هذا يمثل بقايا من أسلوب القص القديم عنده وهو يستعمل ضمير المتكلم •

ويخفق البطل كما قلنا فى تحقيق مطامحه ، بعد أن ينجح دائما فى تحقيق مستوى مستقر من المعيشة لنفسه •

ومع أن موضوع الرواية موضوع خصب ، فان المؤلف لم ينجح فى تقديمه بأسلوب فنى • فالفلاحون لا يستجيبون لصلاح النجومى عندما يعاملهم بالرحمة واللين فيتكاسلون فى آداء أعمالهم ويتباطئون • فى حين يعملون بحماس وحمية عندما يشاهدون أخاه طه النجومى وقد أقبل عليهم من بعيد ، ليرى كيف يعملون • وهؤلاء الفلاحون لا يؤيدون صلاح النجومى فى الانتخابات رغم ما يعرفونه عن موقفه المتعاطف معهم • ولا ندعى أن الفلاح كان يتاح له هذا الحق قبل الثورة ، ولكننا نؤاخذه على عزله هذه الجماعات الريفية عن القارىء ، وكان بوسعه أن يقدمها ويعرض أفكارها بطريقة ما • وبخاصة وأن تبريره لسلوكهم يكون تبريرا ذهنيا خالصا • والحق أن المؤلف سىء الظن بالفلاح المصرى وهو سوء ظن قديم • فبطل « بعد الغروب » يقول عن حسن شيحه ، وهو فقير اضطرته الظروف الى البحث عن أى عمل يرتزق منه مهما كان وضيعا : « وحسن شيحة فقير تمرد على الفقر ، وان لم يبد عليه ذلك ، تمرد على الفقر بالنفاق شأن القرويين » (٣٦) • وهو أمر لا يتيح له أن يجسد مأساة الريف ، وهو يحمل لأهله تلك المشاعر •

وينال صلاح النجومى اهتمامه ، لأنه بطل الرواية ، فيقدمه جسديا ونفسيا ، فهو وسيم يتمتع بقوة الشباب ، كما أنه ثائر على العلاقات بين أبيه وأخيه وفلاحى القرية • كما أنه فنان يلاحظ مواهبه الناشئة أحد مدرسيه ، ويهوى فن التمثيل بوجه خاص • وقد أخذت هذه العوامل تقوى لديه – اذا وضعنا فى الاعتبار أيضا أثر محمد الجندى عليه – احساسه بذاته • فيمقت القرية ويفكر فى الهجرة ، ولكن محاولته تبوء بالفشل • ثم يموت أبوه بعد ذلك ، فيهجر الريف الى المدينة ، ويعمل بالصحافة • والغريب أنه تحول من فلاح الى صحفى •

---

(٣٥) بعد الغروب ، ص ٧٢

(٣٦) البيت الصامت ، ص ١٠١

والجديد فى شخصيته أنه يمارس علاقات غرامية متعددة ، لا يدينها الكاتب ، كما أن لديه ميولا انسانيه تجعله يعطف على محمد الجندى وأمثاله من الكادحين ٠

ويبدو أنه أراد أن يقدم شخصيات ذات أبعاد أو أكثر تعقيدا وتركيبا من شخصياته السابقة فى أعماله الأخرى ٠ ويتضح هذا من قوله : « ان أسرار عدة مشروعات ناقصة لعدة شخصيات ويقول : « تلك المرأة التى تمثل عدة نساء فى عدة صور » ٠ ويقول عنها البدوى السيد : « وهذه الفتاة بما عرفته يابنى من علم النفس وخصوصا العلامة (فرويد) ، (تعرف) ولا (تحب) ٠ وهى فى مثل هذا العصير تعتبر سابقة ٠٠ والذى يسـبق المجموع تراه كل العيون ٠ وأنت تعرف أن للسبق مساوىء تقع على الشخص نفسه وقد يجنى منها الحنظل ٠ واذا كانت الدعوة الى سفور الوجه لقيت فى الشرق عناء فان الدعوة الى سفور الروح لقيت عناء فى كل الدنيا » (٣٧) ٠

ويتضح الميل الى الاتيان بشخصية متعددة الجوانب من قوله عنها : « شخصية المجربة والمجنونة والمستهترة وأطيب النساء كل هذا فى جلدها ٠٠ ليرحمها الله ٠٠ لا تظن أنها ماتت ٠ ليرحمها الله ٠ ففى بعض الليالى تبتهل وتصلى ، وفى بعضها تشرب ٠ وأحيانا تؤكد أن قلبها لم يعرف الحب وأنها لاتزال عذراء لأن العبرة بعذرة الروح ٠ وفى ليلة شتاء طويلة تبيت هلوكا ٠٠ وقد عاشرت فيها كل هؤلاء » ٠٠ « حكاياتها غير منسقة وليس ذلك ناشئا من ضعف خيالها ، ولكنها ـ المسكينة ـ تغالب طبيعة الكذب فى نفسها ، فتغلبها ، فتخلط الصدق بالكذب دون قصد ٠ وتحكى مثل مخمور وعلى السامع الفطن أن يرتب الحوادث » (٣٨) ٠

وصورتها الجسديه تخالف صورة الأبطال فى رواياته السابقة فهى خليط من الحسن والقبح ، بل هى الى القبح وعدم الالتفات الى الأناقة أقرب « لم تكن جميلة ٠ وجهها مستطيل أسمر ملىء بالزغب وعيناها واسعتان مليئتان بما يشبه الخوف ٠ وشفتاها تتحركان أحيانا كمن يحاول الكلام ويتراجع » (٣٩) ٠ « لم يكن فى عينيها السريعتى الحركة الشديدتى السواد

---

(٣٧) للزمن بقية ، ص ٨٢ وأنظر النصين السابقين ص ١١٤ ، ١١٦

(٣٨) للزمن بقية ص ١٢٢

(٣٩) للزمن بقية ص ١٢٣

تردد ، وفى صوتها رنه حيوية · وهى تميل الى الطول ، وتلبس حذاء بلا كعب · نصف جسمها الأعلى يميل الى الأمام نوعا اذا كانت ماشية ، أنفها قصير جذاب ، مما جعل شفتها العليا ذات اتساع ملحوظ ، شعرها غير مرجل بعناية » (٤٠) ·

« كانت الفتنة تكمن فى أشياء ترى منها وأشياء لا ترى · شعرها المهوش ، وحقيبتها غير الأنيقة · ولهجتها السريعة الظامئة · وجرأتها وحياؤها حين يختلطان معا فى مشهد واحد ، مثل النور والظلام فى الأفق ذى الشفق · وأردافها الكبيرة وضحكتها التى تخرج من صميم القلب حين تفتح فمها ضاحكة فى حركة ربما لم تكن رشيقة · والوجه الخالى من المساحيق، والشفاة التى لم تطل بشىء » (٤١) ·

وهذا الوصف التفصيلى والمتفرق لشخصية أسرار يفصح عن رغبة لدى المؤلف فى تقديم شخصية مركبه كما قلنا ، ويكشف عن رغبة فى التجديد ، أو بعباره أخرى عن تصور جديده للمرأة لا يراها بارعة الجمال كما كانت فى أعماله السابقة ، شديدة التحفظ والحياء ، أو التفريط أحيانا ، ولكن يراها بشرا كغيرها من النساء ليس من الضرورى أن تكون مثالا للحسن ، بل يكفى أن تكون جامعة بين الحسن والقبح بل ان وصفه الجسدى يتحدث عن أشياء ما كان يبيح لنفسه أن يخوض فيها من قبل مثل وصف الأرداف · وتكاد البطلة أن تكون مصابة بعقدة الكترا،بسبب غيرتها على أبيها من أمها . وهى فكرة يستقيها من فرويد الذى يرد ذكره على لسان البدوى السيد أحد شخصيات الرواية ·

وتحفل الرواية بكثير من الأفكار التى كان الكاتب ينطق بها راوية ، أو يسوقها سوقا فى سياق رواياته السابقة ، وهو ضرب من « التفلسف » ان صح هذا التعبير تصاب به شخصيات الرواية جميعا على ما بينها من تفاوت فى الثقافة والوضع الاجتماعى ·

والكاتب ينجح فى رسم شخصيتها ، وفى اكسابها قدرا لا بأس به من التجدد ، ولكن سقوطها لم يكن مبررا بالقدر الكافى ، والحق أن المرأة

---

(٤٠) للزمن بقية ص ٧٤

(٤١) للزمن بقية ص ٨١

تسقط بسرعة ، ودون تبرير كاف من المؤلف ، ومن ثم تنتهى النهاية المتوقعة لأمثالها .

ويكاد يكون كل شخص فى الرواية مصابا بعقدة تؤثر فى حياته تأثيرا كبيرا ، فالبدوى السيد مثلا ، يرفض الزواج لأنه يكتشف أن أباه على علاقة بالمربية ، ويبدو أن علم النفس كان له تأثير كبير على المؤلف .